د . عبدالله ركيبي

فلسطين في النثر الجزائري الحديث

الدارس للادب الجزائري الحديث يلحظ ظاهرة متميزة في كتابات الجزائريين شعرا ونثرا ، وهي الانطلاق من الواقع الوطني الى الواقع العربي ، من رؤية محلية الى رؤية عربية شاملة ، بحيث يندر أن نجد قصيدة تتحدث عن قضية وطنية وتركز عليها وحدها دون الربط بينها وبين القضايا العربية الاخرى .

ولا عجب في ذلك ، فالجزائر رغم الستار الحديدي الذي ضربه حولها الاستعمار الفرنسي منذ الاحتلال حتى الاستقلال لم تنفصل عن الوطن العربي ، ووقف الشعب الجزائري وادباؤه ضد سياسة العزل والتفرقة بنفس القوة التي رفضوا بها سياسة الاندماج في الجنسية الاجنبية . ومن هنا نشأ ذلك التعاطف بل ذلك الترابط الوثيق بين الوطن وبين العروبة ، بين الوطنية والقومية ، بين الجزائر والعالم العربي ، الامر الذي يفسر تعلق الجزائريين بالشرق وبالامة العربية ، كما يفسر الاهتمام بقضية فلسطين بوجه خاص ، بحيث لا نغالي حين نقول ان الانتاج الادبي الجزائري ، شعرا ونثرا ، في هذا القرن ، دار حول محاور ثلاثة : الوطنية ، العروبة والوحدة العربية ، فلسطين .

فما من قضية عربية الا ورأينا صداها في أقلام الجزائريين وكتاباتهم ، وما من كارثة وقعت في الوطن العربي ، الا وانفعل بها الادباء الجزائريون ، وما من نصر تحقق في جزء من الامة العربية الا وسارعوا الى التعبير عنه فرحا وحبورا .

ولا داعي لان نعيد الى الاذهان الدوافع التي حركت الادباء الجزائريين بأن يتجاوبوا مع الوطن العربي ، فهي الدوافع نفسها التي حركت أقلام الادباء العرب الاشقاء حين ثار الشعب الجزائري في فاتح نوفمبر ١٩٥٤ .

ولكن الظاهرة التي تلفت انتباه الدارس هي ان الادباء الجزائريين لم يعنوا بقضية فلسطين فحسب ، ولكنهم تفطنوا منذ وقت مبكر الى المؤامرة عليها ، وأعني بالادباء هنا ، كتاب النثر على وجه الخصوص. صحيح ان الشعراء عبروا عن هذه القضية حين ظهرت على المسرح العالمي منذ العشرينات ، وتابعوها في مراحلها المختلفة منذ اعلان « وعد بلفور » ١٩١٧ مرورا بانتفاضات الشعب الفلسطيني في الثلاثينات ثم رفضه لقرار التقسيم ووقوفا الى جانب فلسطين والعرب اثناء حرب ١٩٤٨ حتى نكسة ١٩٦٧ ، ثم تجاوبا مع انتصارات الثوار الفلسطينيين وابطال المقاومة بعد ذلك ، غير ان الشعر اذا كان أقدر على تصوير هذه القضية والتعبير عنها فنيا بحيث استطاع الشعراء أن يحركوا المشاعر والاحاسيس القومية والدينية في هذه القضية وأن يكتفوا بالملامح العامة شأن الشعر في التعبير عن الكلي والعام ، فان كتاب النثر قد تفطنوا لخطر الصهيونية قبل هذا الوقت ، وساعدهم الشكل على توضيح حقيقة الصهيونية من جهة وتعميق أحداث ووافع القضية من جهة ثانية ، ثم بيان دور الاستعمار الغربي في التآمر على فلسطين والعرب من جهة ثالثة .

ومرة أخرى أقول انني لست في حاجة الى ان أعدد الروابط التي تربط بين فلسطين والجزائر منذ فجر التاريخ العربي ، كما انه لا حاجة بنا الى أن نقارن بين واقع فلسطين بعد ان تآمر عليها الاستعمار والصهيونية العالمية ، وبين الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي، فكلا البلدين عرف الاستعمار الاستيطاني وذاق الارهاب بشتى صوره وأشكاله وتعرض لمحاولات القضاء على مقوماته الاصيلة من لغة ودين وتاريخ وحضارة ، بل عرف أخطر من هذا ، محاولة الفناء كيانه ومحوه من الوجود ، وهذا ما يفسر أيضا اهتمام الكتاب والشعراء بنكبة فلسطين ويكشف عن احساس حاد عنيف ضد الاستعمار والتسلط والغزو الاجنبي .

ولعل هذا الشعور العميق بهذه المأساة التي حدثت في فلسطين انطلاقا من واقع مشابه في الماضي هو الذي جعل الشعب الجزائري منذ عشرات السنين لا ينسى الجرح الذي تركته هذه القضية في نفوس أبنائه ، وكان الشعراء والكتاب ألسنة هذا الشعب المعبرين عن أفكاره وعواطفه ، لكن هناك عوامل اخرى غير ما ذكرنا أسهمت في تعميق هذا الاحساس بالنكبة وضاعفت من الاهتمام بها ، وفي مقدمتها احتكاك الجزائريين باليهود منذ قرون طويلة ، مما اتاح لهم فرصة فهم نفسيتهم جيدا وادراك أخلاقهم التي تتناقض تماما مع اخلاق الجزائريين والعرب عامة ، فالمعروف عن اليهود في الجزائر وقت الاحتلال انهم استحلوا كل مباح واستخدموا كافة السبل من أجل الحصول على المال ، وقد كان الربا مثلا أحد وسائلهم للربح وهو ما رفضه الشعب الجزائري بوازع الدين أو الاخلاق الانسانية عامة .

يضاف الى ذلك عامل السياسة ، فقد لعب أفراد منهم دورا بارزا في الحياة السياسية بالجزائر عن طريق الاقتصاد منذ القرن الثامن عشر، خاصة حين تولى الحكم أحد الدايات الاتراك وهو «مصطفى باشا» الذي كان جاهلا ساذجا فأطلق العنان لاحد تجار اليهود المعروفين بحيث أصبح هو الحاكم الفعلي للبلاد ، الامر الذي أدى الى ثورة الجزائريين سنة ١٨٠٥ على هذا الوضع بقيادة المجاهد « يحيى » الذي قضى على هذا اليهودي .

على ان نفوذ اليهود قد تعاظم بعد ذلك حين أصبح اليهوديان « بكري وبوشناق » يتمتعان بمكانة مرموقة لدى الباشوات ، حتى ان « بوشناق » كان : « يستقبل قناصل الدول باسم الباشا » (١) ، وهذه المكانة التي تمتع بها هذان الرجلان ترجع الى سيطرتهما على التجارة بين الجزائر وفرنسا بحيث أصبحا واسطة بين الدولتين قبل الاحتلال ، بل انهما كانا يقومان بالسمسرة لحسابهما الخاص ، وربما كان لهما دور في توتر الجو بين فرنسا والجزائر قبيل الغزو مباشرة .

ويذكر بعض الرحالة الذين عاصروا الاحتلال مثل « سيمون بفايفر » ان الانكشاريين اتهموا اليهود بالتواطؤ مع جيش الاحتلال الفرنسي « ولم يزودوه بالمواد الغذائية فحسب بل وانهم دلوه ايضا على جميع الطرق التي تسهل له الصعود الى الجبال » (٢) .

ولكي ندرك شعور الجزائريين منذ ذلك التاريخ تجاه اليهود ، لا بد أن نسجل ما قاله هذا الرحالة الالماني الذي شاهد بنفسه دور اليهود في مساعدة الاستعمار الفرنسي وتنكرهم للجزائريين الذين أتاحوا لهم العيش في أمن وسلام ، بل أتاحوا لهم الاستقرار والاطمئنان، فيذكر هذا الرحالة بأن السلب الذي تعرض له الجزائريون في بداية الاحتلال اسهم فيه حتى المترجمون من اليهود ، ويقول بالنص :

« ... وهم في الغالب من اليهود الذين يرتدون الزي العسكري الفرنسي فدنسوه بشكل مثير للغضب ، فقد ذهب مثلا يهودي من تونس الى المراعي عدة مرات وساق بنفسه مئات من الاغنام لبيعها في المدينة الى أمثاله ، وكذلك كان يفعل بالخيول والبغال ، وقد حدث ذلك في الايام الاولى التي عمت فيها الفوضى ، وكان الاهالي يختفون بمجرد رؤية الزي الفرنسي » (٣) .

وهناك وقائع كثيرة يسوقها هذا الرحالة الاجنبي تبين موقف اليهود تجاه الجزائريين وتنكرهم لهم ، بمجرد ان بدأ الغزو ، فاستغلوا الظروف والفوضى التي سادت لينهبوا ويسلبوا ، ولم يتورعوا حتى عن نهب النساء ، كأن يرمي احدهم كمية من الاسلحة بفناء دار تملكها سيدة جزائرية ليتهمها باخفاء السلاح والتآمر على السلطة بعد أن يلبس بزة عسكرية مع جماعة معه ويخيرها بين دفع أربعين ألف دينار له أو كشف أمرها للسلطة الفرنسية (٤) .

هذه الوقائع وغيرها هي التي نبهت الجزائريين الى أخلاق اليهود وسلوكهم ، بل ان موقفهم ـ أي اليهود ـ اتضح اكثر حين ساندتهم الادارة الاستعمارية وميزتهم عن الجزائريين منذ بداية الاحتلال، الامر الذي جعلهم يظهرون عداوتهم السافرة للجزائريين ويتآمرون ضدهم ويعتدون عليهم في وضح النهار . يقول هذا الرحالة كذلك : « ... وما ان رأى اليهود ان الفرنسيين يفضلونهم على أبناء البلاد حتى ركبوا رؤوسهم وتظاهروا بالشجاعة واتسمت تصرفاتهم بالجرأة والوقاحة ، فكانوا يعتدون على المسلمين لا سيما الاطفال منهم حين يلتقون بهم في طريقهم ، ويسيئون معاملتهم بصورة فظيعة » (٥) .

وقد منحت السلطات الاستعمارية لليهود بعد الاحتلال مباشرة امتيازات كبيرة في الادارة وفي الاقتصاد والتجارة ، واصبح لهم دور بارز في الحياة السياسية والاقتصادية في الجزائر ، ولكن خطرهم بلغ الذروة بعد قرار كريميو ١٨٧٠ الذي جعل من اليهود فرنسيين دفعة واحدة ، وقد أدى هذا القرار الى سخط الجزائريين ، لانه يعطي اليهود ما للفرنسيين من حقوق وبالتالي ما لهم من تفوق وامتياز بينما يجعل من الجزائريين مواطنين من « الدرجة الثالثة » . بل ان هذا القرار أثار الفرنسيين انفسهم ، فالمعروف ان الفرنسي عامة يتعصب لوطنه وجنسه وقوميته ولا ينظر للاجنبي المتجنس بالفرنسية نظرة احترام ، كما ان القرار المذكور أدى الى ظهور جالية كبيرة من الاوروبيين الاجانب في الجزائر ، مما جعل بعض الباحثين يرى انثورة « المقراني » ١٨٧١ كان من أسبابها ان لم يكن سببها الرئيسي قرار كريميو هذا (٦) .

ويسجل رحالة آخر هو « بيرم الخامس التونسي » الذي زار الجزائر في أواخر السبعينات من القرن الماضي هذه العبارة : « وترى اليهود أحرز للحرية في معاملة الفرنسيين وخطابهم من المسلمين » (٧) .

هذه هي الارضية التي مهدت للكتاب بأن ينطلقوا من هذا الماضي وهذه الوقائع فينبهوا الى خطر اليهود والى أهدافهم عن تجربة وادراك وتاريخ ، وهذا ما يفسر ـ كما ذكرت آنفا ـ تلك العناية الخاصة بقضية فلسطين والخوف عليها من أطماع الصهيونية وخاصة حين أخذ اليهود في الجزائر في العشرينات يجندون أنفسهم في جمعيات تدافع عن مصالحهم (٨) .

ومع هذا كله فان الجزائريين لم يعادوا اليهود ولم تظهر بينهم تلك الدعوة التي ترفض « السامية » ، ولم ينطلق كتابهم من عاطفة وطنية او قوميه او دينية ،بل ان دعوة « اللاسامية » انتشرت بين الفرنسيين منذ القرن الماضي بحيث ظهر تيار في الصحافة الفرنسية يهاجم اليهود ويستعدي عليهم السلطة ، وقد تزعم هذه الحركة المعمرون الفرنسيون (الكولون) ففنوا العداوة ضد اليهود بصورة عنيفة ، وبرز من بين هؤلاء المعمرين « ماكس ريجي » رئيس بلدية الجزائر أواخر التسعينات من القرن الماضي (٩) .

ولقد فرح الفرنسيون حين ألغي « مرسوم كريميو » بعد الحرب العالمية الثانية « فهزتهم النشوة العنصرية ، وحتى أولئك النواب أمثال « مورينو » وغيره الذين لم يتبوأوا مقاعد النيابة الا بفضل الناخبين اليهود فقد حبذوا هذا الالغاء وصفقوا له » (١٠) .

وقد كتب « مورينو » هذا قائلا : « ان اضطرابات سنة ١٨٩٦ المناوئة لليهود ما كان سببها الا المرسوم كريميو ومطالبتنا بالغائه ، واليوم ها نحن بلغنا هدفنا ، نعم فقد ألغي هذا المرسوم المشؤوم ، وعاد اليهودي الى منصبه وهو منصب الاهلي (الانديجان) الجزائري الذي لم يكن ليخرج منه ، وما اخرجه منه الا (خرق) (١١)قانون سافر اقترفه اليهودي كريميو .. » (١٢) .

لذلك نشأت صحف فرنسية في الجزائر تندد باليهود وتشن

---

(١) « تاريخ الجزائر الحديث » د. سعد الله ص ١٢ ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٧٠ .

(٢) انظر : مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر (سيمون بفايفر) ترجمة د. ابو العيد دودو ، ص ٩٨ ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ١٩٧٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٦) كتاب الجزائر ـ أحمد توفيق المدني ـ ص ٦١ ـ ٦٢ طبعة ثانية ـ دار المعارف ١٩٦٣ .

(٧) « صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والافكار » محمد بيرم الخامس التونسي ح : ٤ ، ص ١٤ ، المطبعة الاسلامية بالقاهرة ١٨٨٤ .

(٨) جريدة « التقدم » ـ الجزائر ـ ١ نوفمبر ١٩٢٣ .

(٩) انظر « ليل الاستعمار » فرحات عباس ، ص ٩٤ ، ترجمة ابو بكر رحال ـ مطبعة فضالة بالمغرب .

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(١١) هكذا في النص المترجم ، والمعنى قد يضطرب بسبب الترجمة الحرفية غير الدقيقة أحيانا كما هو الملاحظ في هذا النص وفي السابق عليه .

(١٢) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

عليهم حربا سافرة وتطالب باضطهادهم (١٣) .

هذا هو المناخ الذي ساد الجزائر في القرن الماضي ، مناخ عنصري منعصب أحدثه الفرنسيون اليهود والاجانب الاوروبيون واصطلى بناره الجزائريون وأحسوا بالاختناق فيه ، ولكنهم لم يستجيبوا لهذه الروح العنصرية التي تكره العرب وتحقد عليهم .

ولا شك في أن الكتاب الجزائريين أدركوا خطر اليهود بعد أن ظهرت الحركة الصهيونية للوجود عقب مؤتمر « بال » ١٨٩٧ الذي دعا الى انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، وتأكدوا من نواياهم بحكم انهم أقرب من غيرهم الى معرفة ما يجري في اوروبا بواسطة الصحف الفرنسية سواء في الجزائر أو في فرنسا ، وكذلك بحكم الاحتكاك المباشر بالغرب منذ الاحتلال .

ونحن نفرق بين أسلوبين فيما كتبه الكتاب في هذا الموضوع ، الاسلوب الصحفي الذي ينقل الخبر أو يحلله ويعلق عليه دون اهتمام بالصياغة وجمال التعبير بل ودون تصوير ، انما المهم هو بيان الحقيقة وتبصير الناس بواقع القضية وبما يترتب عنها من نتائج ، وهذا الاسلوب لا يهمنا في هذا البحث ، وانما الذي نعنى به هو ذلك النثر الادبي الذي يعبر فيه صاحبه عن انفعاله تجاه القضية ويصطنع فيه الاسلوب الادبي سواء في عبارته أو صياغته أو انشائه ، ويجسم فيه شعوره نحو فلسطين .

على اننا من الناحية المنهجية ومن الناحية التاريخية سنشير الى الاسلوبين معا ثم نركز على الاسلوب الثاني .

ففي الحديث عن أخلاق اليهود انطلق الكتاب الجزائريون من الواقع ، فنجدهم يحذرون المواطنين من شرهم ومن استخدامهم لمختلف السبل لتحقيق منافعهم بصرف النظر عن جميع القيم ، وقد ظهر مثلا مقال في جريدة « الحق » وهي جريدة وطنية صدرت في أواخر القرن الماضي وصف فيه كاتبه « ما يتعرض له الاهالي التعساء من معاملات اليهود القاسية التي بدلت نعيمهم بؤسا وغناهم فقرا وجعلت منهم غرباء في أوطانهم لا يملكون شيئا ، لان اولئك الجشعين قد ففروا الافواه لالتهام كل ما تصل اليه أيديهم .. » (١٤) .

وكما سبق أن ذكرنا ان هؤلاء الكتاب تفطنوا لخطر اليهود منذ فترة مبكرة ، أي منذ أواخر القرن الماضي ، فكتب « عمر راسم » سلسلة مقالات : « في «المسالة اليهودية» نشرت في « المرشد » ، و « مرشد الامة » أعطى فيها رأيه الخاص .. » (١٥) .

و « عمر راسم » في رأيي هو أول كاتب جزائري تفطن لهذه القضية ، فنراه يحذر الجزائريين من طرقهم السيئة في افساد الشباب الجزائري ، بحيث يستدرجونه الى التحلل من الاخلاق ويغرونه بالادمان على الخمر أو القمار وما الى ذلك ، فيذكر بالنص :

« اليهود وحدهم الذين أخذوا يسعون في تشتيت شملنا ونهب أرزاقنا بواسطة وباء الخمر ، وقد نالوا مبتغاهم وصرنا لهم أسارى وعبيدا .. » (١٦) .

---

(١٣) يذكر محمد ناصر في اطروحته المخطوطة « المقالة الصحفية الجزائرية » ـ المجلد الاول ـ : انه في الفترة ما بين ١٨٨٥ ـ ١٩٠٥ ظهرت صحف تحمل عنوان « ضد اليهود » . أنظر الاطروحة ففيها معلومات قيمة في هذا الموضوع .

(١٤) أنظر : «المقالة الصحفية الجزائرية» ـ محمد ناصر ـ مخطوط .

(١٥) « تقويم الاخلاق » ـ محمد بن العابد الجيلالي، ص ٤٩ ـ المطبعة الاسلامية بقسنطينة ـ الجزائر ١٩٢٧ . والجريدتان اللتان ذكرهما صاحب هذا التقويم صدرتا أواخر القرن الماضي مثل جريدة « الحق » .

(١٦) أنظر : « قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر » ـ عبد الله ركيبي ، ص ٤٢ ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٧٠ .

بل انه يصرح بخطر الصهيونية منذ وقت مبكر حتى قبل اعلان « وعد بلفور » وينبه العرب الى هذا الخطر الذي لا يضر بالفلسطينيين وحدهم وانما يضر بالعرب أجمعين حين يقول : « ان التفاهم مع الصهيونيه مستحيل لان في ذلك اعترافا بهم وبزعامتهم ، والبلاد المقدسة اشتراها آباء العرب بدمائهم .. » (١٧) .

فالكاتب يبدو هنا دقيقا واعيا بالحقيقة الصهيونية مدركا لاهدافها ، وأيضا يدلل على انه كان يتابع تطورات دعواتها في تكوين وطن قومي لليهود في فلسطين منذ مؤتمر « بال » ، بل اكثر من ذلك ان الكاتب أثناء الحرب العالمية الاولى كتب مبينا خطر مؤتمر « بال » وقراراته التي نشرت في كتاب بالفرنسية ، كما ندد باجتماعات اليهود في فرنسا حيث يقول عنهم انهم : « دعوا ابناء اسرائيل الى اعانة المشروع المقدس واظهار راية سليمان » (١٨) .

وينبه الكاتب الى ما قاله أحدهم : « بأن اليهود في فلسطين سينجحون على رغم الهلال والصليب ، لان العرب امة متكاسلة لا تحب العمل ، واليهود أمة نشيطة ستستولي بنشاطها على الارض المقدسة .. » (١٩) .

فهذا الكاتب اذن كان واعيا منذ زمن طويل بما يحيكه اليهود ضد العرب وضد فلسطين بوجه خاص ، ويرد على « رشيد رضا » الذي اقترح :

« اما عقد اتفاق مع زعماء الصهيونيين على الجمع بين مصلحة الفريقين في البلاد ان أمكن ، واما صرف قواهم كلها لمقاومة الصهيونيين بكل طرق المقاومة .. » (٢٠) .

ولكن الكاتب الجزائري يرد عليه في عنف ، يرد على الحل الاستسلامي المبكر الذي نادى به « رشيد رضا » فيقول « راسم » :

« هذا خطأ فاحش من صاحب المنار لانه يريد ان يرضي الدخلاء بتنازل أهل البلاد اليهم حتى يعترفوا لهم بالمساواة .. » (٢١) .

على انه في هذه الفترة التي أشرنا اليها ، وحتى قبل الحرب العالمية الاولى ، نلحظ كتابا آخرين ـ مثل « عمر بن قدور » يهتمون بتأثير اليهود في تركيا وفي أوروبا وكيف انهم سيطروا ـ بما يملكون من مال وما يستخدمون من مؤامرات ـ على الحكومات في تركيا وأوروبا منذ القرن الماضي ، كما يضرب أمثلة من التاريخ لعب فيها اليهود دورا مخربا (٢٢) .

* * *

واذا كنا لم نعثر على انتاج كبير قبل « وعد بلفور » سوى ما ذكرنا فاننا بعد هذا الوعد نلحظ سيلا جارفا من المقالات في مختلف الصحف تندد به وبالاستعمار الانكليزي الذي فرض حمايته بالقوة على فلسطين ، وبالتالي مهد الطريق لاقامة وطن لليهود على أرضها ، بل تهاجم تلك الموجة التي ظفت في الجزائر وتمثلت في دعوة اليهود الى اغاثة أمثالهم في فلسطين وظهور شخصيات يهودية تنشىء الجمعيات وتجمع الاموال بقصد ارسالها الى يهود فلسطين .

وقد قابلت هذه الموجة موجة أخرى من الجزائريين على لسان كتابها تدعو الشعب الى اليقظة والحذر وعدم التورط في اعطاء اليهود أموالا لن تبقى في الجزائر بل مآلها الذهاب الى فلسطين لتستخدم ضد العرب والمسلمين هناك .

ولعل الكاتب « محمد السعيد الزاهري » كان من بين من عنوا

ـ التتمة على الصفحة ـ ٨٤ ـ

---

(١٧) « ذو الفقار » ، ٢٨ جويليه ١٩١٤ .

(١٨) « ذو الفقار » ، عدد ٤ ـ ١٩١٤ .

(١٩) المصدر السابق .

(٢٠) المصدر السابق .

(٢١) المصدر السابق .

(٢٢) « الفاروق » ، ٧ مارس ١٩١٣ .

فلسطين في النثر الجزائري الحديث

تابع المنشور على الصفحة ـ ١٤ ـ

بصورة خاصة بهذا الموضوع في تلك الحقبة ، وأظهر وعيا بما يقوم به اليهود في الجزائر لنصرة أمثالهم في فلسطين ، وقد أثاره أحد المحامين اليهود واسمه « ناطان لابيرن » الذي حل بالجزائر من « لدن جمعية كيرن هايسود اليهودية يدعو اخوانه الاسرائيليين لاعانة معمري أرض الميعاد » . ويقول « الزاهري » عنه ايضا : « وقد احتفل به يهود بلادنا بكل آبهة واكرام واجتمعوا اليه مع رؤساء « الاشتراكية » في قاعة مركز العساكر والبحرية حيث ألقى خطابا يحرض فيه الهمة اليهودية لتأييد دين آبائهم وأجدادهم » (٢٣) .

ولكي يستحث الكتاب الجزائريين والمسلمين والعرب عامة على التشبث بالاوطان وبالقومية يشرح مجهودات اليهود لانشاء وطن رغم تشتتهم في بلدان كثيرة ورغم نبههم منذ آلاف السنين ، وينافش ادعاء اليهود في فلسطين وحقهم في أرضها « بأمر الرب » كما يزعمون ، ويفند حججهم بالمنطق والواقع ، فاليهود اذا كانوا قد خرجوا منها فلماذا ؟ ومن أخرجهم ؟ فالارض لمن بقي فيها وحافظ عليها ولم يتركها .

والكاتب لا يرى في أطماع اليهود سوى نون من أطماع الاستعمار ورغبته في استغلال الشعوب :

« يقول اليهود أن فلسطين ملك لهم بأمر الرب ، واذا كان الامر كذلك فمن الذي اخرجهم منها ، هل هو أقوى من الرب ؟ وعلى كل حال فهي ليست لهم لان أهاليها هم الذين لم يفارقوها ومكثوا فيها من قبل أتيه الى اليوم ، ولم يأمر الرب ولم يوافق العدل على أن لا يملك تلك الارض الا المتدين باليهودية ، بل الحق الذي لا مراء فيه هو ان استعمار فلسطين باليهود هو ظلم كظلم سائر الاستعمار » (٢٤) .

ولذلك يشجب موقف اليهود في الجزائر ويرفض ان ترسل الاموال الى فلسطين لتستخدم ضد « أهالي فلسطين الحقيقيين » (٢٥)

ثم يوجه نقده لهذا المحامي وأمثاله من اليهود وزعمائهم الذين يتحدون شعور الجزائريين ويهددهم : « وليعلموا أن فلسطين أرض عربية اسلامية وان أموالنا وأرواحنا التي أزهقت في الحرب الاخيرة لا تذهب وراء سعي المرابين .. » (٢٦) .

فالزاهري من اكثر الكتاب تفطنا الى صلة اليهود في الجزائر بأمثالهم في فلسطين ، بل باتحاد يهود العالم ضد فلسطين وضد العرب . واذا كان في المقال السابق قد ناقش القضية بالمنطق والحجة واستخدم أسلوب الاقناع ، فانه في مقال آخر قد عبر عن شعوره واحساسه وانفعاله بالقضية حين ظهر طغيان الصهيونية في فلسطين سنة ١٩٢٩ ، وربما بعد ثورة الشعب الفلسطيني في أواخر العشرينات التي كان رد الاستعمار الانكليزي والصهيونية عليها تلك المذابح وصنوف الاضطهاد التي شنت على أبناء فلسطين مما حرك في نفس الكاتب هذه الصرخة المدوية مطالبا بالوقوف الى جانب فلسطين في مقاله : « فظائع الصهيونية في فلسطين ، الاكتتاب الاكتتاب ، الغوث الغوث أيها المسلمون » (٢٧) .

وحتى يحرك الكاتب مشاعر الناس يضرب على وتر الدين لانه اكثر تأثيرا في الجزائريين الذين كانوا يعانون أيضا من اضطهاد الدين ومن العنصرية والاستعمار ، لذلك ينبه الجزائريين الى ما حل بأرض النبوة ويذكر بأن الصهاينه قد « اغتصبوا البراق الشريف وردوه كنيسا لهم واعتدوا على المسجد الاقصى في القدس الشريف وهم يحاولون أن يتخذوه كنيسا لهم أيضا .. » (٢٨) .

ثم يوجه الخطاب للجزائريين بقوله : « وهل سمعتم بأن اخوانكم المسلمين الذين تركتموهم هنالك في فلسطين سندة للمسجد الاقصى وحراسا للبراق الشريف ، قد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ودافعوا عن البراق وعن المسجد الاقصى ثم اغتالتهم الصهيونيه اليهودية وفتكت بهم فتكا ذريعا .. » (٢٩) .

ثم يبين موقف العالم الاسلامي الذي ساند الفلسطينيين في تلك الفترة وجمع لهم الاموال وفتح الاكتتابات «وما بقي غير الجزائريين» (٣٠) .

فهو بهذا يثير نخوة أبناء وطنه رغم انه يعرف ان الاستعمار الفرنسي يقف بالمرصاد لهم ولتعاطفهم مع فلسطين او غيرها من الوطن العربي ، ولكنه بعد أن استخدم التكرار في الفقرة الاولى يحشد في فقرة تالية صورا تعبر عن حزن الجزائريين وشعورهم بالالم العميق لما يجري في فلسطين مطالبا اياهم بترجمة احساسهم هذا الى مساعدات لاخوانهم الفلسطينيين :

« أرى في الجزائر أعينا باكية تفيض بالدمع على ضحايا البراق الشريف ، وقلوبا دامية ملؤها آلالم والحسرة على ما أصاب المسلمين حرس البراق الشريف . عواطف هائجة ساخطة على أولئك اللصوص الصهيونيين الذين اغتصبوا البراق وعلى سياسة الانكليز الجائرة التي تجور على المسلمين وتحابي اليهود في فلسطين ، والى الآن لم نقم بأي عمل يقنع اولئك المسلمين المنكوبين .. » (٣١) .

على أن الكاتب يقارن بين موقف الجزائريين في مساعدتهم لاخوانهم الليبيين في حرب طرابلس ضد الايطاليين وبين فلسطين التي تترقب منهم هذا الموقف (٣٢) .

ولا شك ان أحداث فلسطين ١٩٢٨ وما بعدها هي التي حركت وجدان هذا الكاتب بمثل هذا الاسلوب الحماسي المتفجر عاطفة ، بل انه سخر من بعض المنظمات الدينية الجزائرية التي لم تلتفت لفلسطين واهتمت بما يجري في الحجاز عندما قامت ثورة « الوهابيين » فتباكت على الاسلام خوفا عليه من هذه الحركة الجديدة ، ويهاجم بشكل خاص أولئك « الطرقيين » وأصحاب الزوايا من المتصوفة الذين يمثلون الفكر الرجعي المتحجر ويتباكون على القباب والقبور ولكنهم لا يحركون ساكنا من أجل المسجد الاقصى الذي يتعرض للاحتلال :

« .. وأنتم أيها الطرقيون ان كان يسوؤكم من جلالة ملك الحجاز أن يسلم القبور ويهدم القباب فهلا يسوؤكم من اليهود ان يغتصبوا البراق الشريف ويردوه كنيسا لهم ، فهل لكم ان تسترجعوا البراق الشريف وتحتفظوا بالمسجد الاقصى ببعض ما تنفقونه حول الاضرحة والقبور من نذور وصدقات .. » (٣٣) .

ومن المؤكد ان الزاهري في هذا المقال وغيره انما انفعل هو وأمثاله في ذلك الوقت بما يجري في فلسطين بعد ظهور قضية « حائط المبكى » الذي اتخذ منه اليهود شعارا يتسترون وراءه حتى يحققوا أهدافهم .

وهو بعد ذلك يوجه نداء حارا لكل المنظمات والجمعيات والافراد ليقفوا الى جانب الفلسطينيين ، فقد خاطب رجال « نادي الترقي » ورجال الصحافة يدعوهم الى أن يصوروا « مرارة المحن والشدائد

---

(٢٣) « البرق » ٢٠ ـ ٦ ـ ١٩٢٧ . (وكان الزاهري يوقع فيه باسم « الراصد » ، والملاحظ انه يقصد بالاشتراكية بعض الاحزاب التي ترفع شعار الاشتراكية في ذلك الوقت) .

(٢٤) المصدر السابق .

(٢٥) المصدر السابق .

(٢٦) المصدر السابق .

(٢٧) « الاصلاح » ١٢ ـ ١٢ ـ ١٩٢٩ .

(٢٨) المصدر السابق .

(٢٩) المصدر السابق .

(٣٠) المصدر السابق .

(٣١) المصدر السابق .

(٣٢) المصدر السابق .

(٣٣) المصدر السابق .

التي ذاقها المسلمون هنالك ... » (٣٤) .

كما يقارن مرة اخرى بين اليهود والمسلمين وينبه الاذهان الى ما يفعله اليهود من أجل اخوانهم وما لا يفعله المسلمون من أجل الفلسطينيين :

« ان اليهود في كل موضع يؤيدون اخوانهم في فلسطين على باطلهم المنكر ، فلماذا نحن المسلمين لا نؤيد اخواننا هنالك على حقهم المعروف المقدس ؟ » (٣٥) .

والشيء الملفت للنظر حقا ان الصحافة الجزائرية في هذه المرحلة أولت عناية خاصة لاخبار فلسطين ، فما من جريدة الا ونقلت ما يجري هناك من أحداث خطيرة وما يحاك ضد فلسطين وسكانها الاصليين (٣٦) وكانت هذه الاخبار تتصدر الصحف بعناوين بارزة مثل : « الحالة في القدس » ، « قلاقل فلسطين » وغيرها ، بل ان هذه الصحف كانت تنقل المقالات التي تصدر في صحف فرنسية كجريدة « لا بريس ليبر » الجزائرية .

وهناك كاتب آخر اهتم بقضية فلسطين وكرس لها مقالات ضافية حلل فيها ادعاء الصهيونية في « حائط المبكى » ، وهو « ابو اليقظان » صاحب جريدة « وادي ميزاب » ، فقد حلل الاحداث التي وقعت بسبب ذلك الحائط ، وقال ان اثارة الموضوع لا يرجع الى عقيدة دينية أو الى حق شرعي بل يرجع الى أسباب أخرى أهم من ذلك وأخطر :

« .. انما حقيقة المسألة هي السرطان الصهيوني الناشب مخالبه في غلصمة (٣٧) العالم ، الظاهرة عوارضه الراهنة في فردوس الاسلام وجنة الارض ومقر أنبياء الله فلسطين .. » (٣٨) .

فالكاتب ينظر الى الادعاء في حائط المبكى نظرة اخرى ، فهو يرى في الصهيونية سرطانا واستعمارا ، تسعى الى احتلال الارض واستغلال خيراتها شأن الاستعمار ، والكاتب يوجه سهام نقده الى حكومة الانكليز التي حمت أطماع اليهود بل وحمت جرائمهم التي ارتكبوها ضد الفلسطينيين ، ويسخر من وفائها لليهود منذ « وعد بلفور » ، وتنكرها للعرب رغم وعدها لهم قبل ذلك ، ثم يسخر أيضا من اعطائها أرضا ليست لها : « واذا حملها سخاؤها على أن تتكرم على آية طائفة شاءت فذلك شأنها ولا دخل لنا في ذلك ، وانما نقول لها يجب ان يكون السخاء من جيبك ومن بلادك لا من جيوب الناس وبلادهم .. » (٣٩) .

ولكن كاتبا آخر يختار أسلوب الهجوم الحاد والسخط على الانكليز وعلى مؤامراتهم ، كما يختار أسلوب الفخر بمقاومة الفلسطينيين واستشهادهم ويحث الفلسطينيين على التضحية ، فاذا كانوا قد قدموا الشهداء الذين أعدمهم الانكليز سنة ١٩٣٠ ، فان ذلك هو ثمن الحرية وطريقها : « لم تدفن في تلك القبور الثلاثة جثث الابطال الشهداء الخالدين ، كلا ، لقد دفن أولئك في القلوب العربية الدامية ، انما الذي دفن في تلك القبور أبديا هو سياسة حسن الظن في الانكليز واعتماد الضعيف على القوي لاحراز حقه ، سياسة التكفف والاستجداء والابتذال ، لقد حال الموت الزؤام بين الانكليز ورجال العرب ، فلن يكون بينهما في المستقبل الا الموت الزؤام .. » (٤٠) .

فنحن نرى من هذا النص ان « أحمد توفيق المدني » الذي كان من الكتاب الثائرين والمكثرين من الحديث عن فلسطين الرافضين للحلول الاستسلامية ، وهو نفس الموقف الذي اتخذه « عمر راسم » منذ اكثر من خمس عشرة سنة ، الامر الذي يمثل خطا واضحا للكتاب الجزائريين في فهمهم ونظرتهم للحلول الحاسمة تجاه هذه القضية ، فهم منذ أخذوا يعالجون ملابساتها وأحداثها لم ينخدعوا بوعود الانكليز للعرب ، لانهم يعرفون وعود الاستعمار ، ويدركون جيدا ان هذه الوعود انما هي أسلوب لذر الرماد في العيون كلما اشتدت مقاومة الشعوب لنفوذه وسطوته ، فقد وعدت فرنسا الشعب الجزائري باستقلاله منذ الحرب الاولى ، ولكنه بعد أن انتصرت فرنسا ومعها الحلفاء لم يجن من ذلك سوى المزيد من القهر والمماطلة بالرغم من التضحيات التي قدمها الجزائريون من أجل « العالم الحر » ومن أجل فرنسا بالذات . واذا كان هناك نفر من الكتاب ـ وهم قلة ـ لم يصرحوا بجرأة بموقفهم هذا سواء تجاه الانكليز او فرنسا ، وكانوا يخاطبونهما بأسلوب فيه لين فان أغلب الكتاب كانوا يستخدمون أسلوب الثورة والصراحة والهجوم .

ووعي الكتاب الجزائريين يبدو أيضا في تنبههم للاحداث في فلسطين تحت الانتداب البريطاني وتنبيه الرأي العام في الجزائر وخارجها الى مناورات بريطانيا التي تظهر للعرب غير ما تبطن وتساند الصهيونية في الخفاء وفي العلن أحيانا كثيرة ، فحين أصدرت « الكتاب الابيض » الذي أغضب اليهود لم تنطل الحيلة على كتاب الجزائر ونددوا بالمناورة التي قصد منها الهاء الفلسطينيين عن حقهم في أرضهم وبلادهم وحريتهم (٤١) .

* * *

هذا موقف الكتاب قبل الثلاثينات ، وهذا ادراكهم للقضية الفلسطينية ومعطياتها ، اما بعد ذلك وحتى الحرب العالمية الثانية فان موقفهم ازداد وضوحا واشتدت دعوتهم الى مؤازرة الشعب الفلسطيني خاصة بعد أن تأسست « جمعية العلماء » سنة ١٩٣١ وأصبحت لها صحف رسمية تعبر عن أفكارها الاصلاحية، مثل جريدة « البصائر » ومجلة « الشهاب » ، كما انتشرت المقالات حول فلسطين في صحف اخرى لغير هذه الجمعية ، وظهر تيار واضح في كتابات الجزائريين يواكب تطورات القضية ويبصر الناس بها وبظروفها ، وهنا نجد الاسلوبين الآنفي الذكر : أسلوب التحليل للاحداث ومعطياتها ، كما نجد أسلوب الحماسة يطغى على كثير من المقالات مما يقربها من النثر الادبي ، وقد استمر هذا حتى بعد الحرب العالمية الثانية بل حتى قيام ثورة نوفمبر ١٩٥٤ .

ففي مقال بعنوان « قضايا العالم العربي : فلسطين » يعلن صاحبه القطيعة الكاملة بين العرب وأعدائهم ، وربما كان هذا ردا على محاولات الاستعمار الانكليزي لتهدئة خواطر الجميع ، فكان المقال ردا على هذه السياسة الكاذبة وهذه المناورات : « لا وفاق بين الفريقين، ولا آنساب بينهم ولا هم يتساءلون ، انما هي أحلام وهواجس وحيل ودسائس ، وأضاليل ووساوس » (٤٢) .

بهذا الاسلوب المسجوع يبدأ الكاتب في كشف دور الانكليز حين حاولوا التوفيق بين العرب وأعدائهم بعد أن فشلوا في سياستهم بالقوة ، ولجأوا الى المناورة حتى يثبتوا حقوقا غير مشروعة بواسطة هذه الدعوة الى التفاهم بين الفلسطينيين والصهاينة ، وقد حاول بعض اليهود أيضا أن يدعو الى هذا الوفاق بين العرب واليهود « وازالة سوء التفاهم من بينهم » (٤٣) .

والكاتب في مقاله الذي يتضمن تحليلا واعيا بالاحداث في ذلك الحين ، ينبه الى ان هذا التغير في موقف الصهاينة انما جاء نتيجة تمسك العرب بحقهم في أرضهم ورفضهم لاسلوب الاستجداء واختيارهم

---

(٣٤) المصدر السابق .
(٣٥) المصدر السابق .
(٣٦) « المقالة الصحفية الجزائرية » ـ محمد ناصر ـ مخطوط .
(٣٧) الغلصمة هي اللحم بين الرأس والعنق ، وهو يقصد ان الصهيونية تمتص دماء العالم وتسيطر على اقتصاده .
(٣٨) « وادي ميزاب » ٢٥ ـ ١ ـ ١٩٣٠ .
(٣٩) المصدر السابق .
(٤٠) « المقالة الصحفية الجزائرية » ـ محمد ناصر ـ مخطوط .
(٤١) « المغرب » ٤ ـ ٧ ـ ١٩٣٠ .
(٤٢) « البلاغ » ١ ـ ٣ ـ ١٩٣١ بامضاء « مطلع » .
(٤٣) المصدر السابق .

طريق الثورة والنضال ، وهو طريق صعب تعرضوا بسببه لكثير من المحن وذاقوا صنوفا من العذاب وتحملوا ما عجز عن احتماله غيرهم ممن هم في مثل وضعهم : « لقد ذاق أولئك العرب المساكين أنواع الاضطهاد والاذى في سبيل تمسكهم بحقهم الطبيعي ودفاعهم عن ما لا يتصور احتماله في غير أولي النفوس الجبارة التي انتهت بهم الى تلك المعاملة الشائنة الى درجة يذهب معها حلم الحليم وصبر الصابر ، فانفجر ذلك البركان الهائل الذي صير فلسطين المقدسة مجزرة بشرية .. » (٤٤) .

ان الكاتب يصور انتفاضة الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الانكليزي وضد الصهيونية ويصور مدى ما عانى منه هذا الشعب العربي المناضل وما تحمله دفاعا عن الارض والحق والعدل ، وهو يعي سبب تراجع الصهاينة ومعهم الانكليز ومحاولاتهم تهدئة هذا البركان ـ على حد تعبيره ـ وذلك حين اصطدموا بالواقع فزالت عن ابصارهم الغشاوة « ورأوا في الزوايا خبايا وفي العرين ليوثا وشعروا بسوء المغبة وقرعوا سن الندم ولات حين مندم ، وحين لم يمكنهم الدخول من هذا الباب ـ باب العنف والشدة ـ رأوا من مصلحتهم ان يقلبوا الورقة سترا لفضيحتهم ودفاعا لمرة الفشل الذي باؤوا به ويستعملوا أساليبهم المتنوعة لايجاد باب آخر يدخلون منه المسرح لتمثيل نفس الرواية انما غشوها بغشاء ظاهري شفاف .. » (٤٥) .

هذا هو الخط الذي سار فيه الكتاب الجزائريون ولم ينخدعوا بتجاوب اليهود أو خضوعهم لما جاء في « الكتاب الابيض » أو لانهم الذي تواروا خلفه حتى تتاح لهم فرصة للانقضاض مرة اخرى ، فالكاتب يكشف سر تبدل أساليبهم ويدركها كما أدركها قبله من تحدثنا عنهم سابقا ، وهو آذن يوعز ويوحي للعرب بأن يتفطنوا الى مكرهم وطرقهم الملتوية وألا ينخدعوا بالظاهر ، مشيرا بهذا الى الضجة التي أثارها اليهود في تلك الفترة ضد الانكليز محاولين أن يلقوا بالمسؤولية على عاتق حكومة الانتداب التي في زعمهم تسعى الى التفرقة بين السكان من أصلين وجنسين مختلفين ، ربما ليزرعوا البلبلة في النفوس أو ليستعدوا الانكليز على العرب كما فعلوا دائما ، ولكن الكاتب يذكر بأن الفلسطينيين آدرى بهذه المناورة الصهيونية وانهم سيستمرون على صمودهم ورفضهم لاي دعوى أو ادعاء لليهود في فلسطين (٤٦) .

ولا بد ان نشير هنا الى ردود الفعل من جانب اليهود في الجزائر حيث وقعت حوادث دامية كثيرة في تلك الفترة بسبب استفزاز اليهود للجزائريين المسلمين وتحرشهم بهم في كثير من مناحق القطر واعتداءاتهم المتكررة عليهم وعلى الدين الاسلامي ومنها فاجعة قسنطينة التي وقعت أواخر سنة ١٩٣٤ واستخدم فيها اليهود ضد العرب كافة وسائل الاذى حتى الرصاص ، مما نجم عنه سقوط الكثير من القتلى والجرحى (٤٧) .

وهكذا كان اليهود في الجزائر ينتقمون من الجزائريين لموقفهم المساند لاخوانهم عرب فلسطين ولمجهودات الكتاب في فضح مؤامرات الصهيونية والاستعمار والتي ازدادت عنفا وقوة بعد ثورة الشعب الفلسطيني عام ١٩٣٦ واضرابه المشهور . وهنا توالت المقالات صارخة مدوية تستثير عاطفة القومية والدين في نفوس العرب جميعا ، وظهرت الدعوة الى تكوين لجان من أجل اغاثة فلسطين (٤٨) .

وبالطبع فان هذه المقالات مليئة بالسخط تنضح بالثورة والحماس والنبرة العالية ضد ما يجري في فلسطين من ظلم وقهر (٤٩) ، وهو الطابع نفسه الذي اتسم به شعر تلك الفترة .

كما نشرت البيانات في الصحف تندد بالانكليز وانحيازهم لليهود وتشجب أطماع الصهيونية في فلسطين خاصة حين ظهر مشروع « قرار التقسيم » عام ١٩٣٧ ، فرأينا ذلك السيل الجارف من البرقيات والمقالات والبيانات تنشر تباعا في الصحف والمجلات والجرائد الجزائرية تساند أبناء فلسطين وتندد بأعدائهم من مستعمرين وصهاينة ، وكذلك رأينا الاحتجاج ضد عزل « الحاج أمين الحسيني » من رئاسة المجلس الاسلامي الفلسطيني ، فهاجر الى الشام بعد أن أمر الانكليز بالقاء القبض عليه .

وسنكتفي بنموذج واحد من تلك المقالات التي عرضت لهذه القضية بعد الثورة الفلسطينية الكبرى وبعد مشروع التقسيم ، لان عرض هذه المقالات يستلزم دراسة اخرى لا يحتملها هذا الحديث ، ذلك أن قرار « لجنة بيل » التي دعت الى تقسيم فلسطين في السنة المشار اليها أحدث ردود فعل عنيفة في نفوس الجزائريين ، وكان من الطبيعي أن ينفعل كتابهم وشعراؤهم لهذا الظلم الصارخ باعتبار ان الاديب اكثر احساسا بالكارثة بل اكثر قدرة على التعبير عنها وعن أبعادها وظروفها ومعطياتها .

والمقال الذي عنيناه هو لكاتب وشاعر جزائري كان يرفض المهادنة لان مزاجه حاد وطبيعته ترفض المساومة ، كما ان البيئة التي ولد وعاش فيها تقدس كل ما له صلة بالتاريخ والتراث العربي الاسلامي . لذلك جاء مقاله صرخة تهز أولئك الذين لم يستيقظوا بعد على ما يجري في الارض المقدسة ، هذا الكاتب هو « الطيب العقبي » ، ولكي يؤثر على قرائه يصدر مقاله بهذا النداء العاطفي :

« لبيك ، لبيك فلسطين ، فما أنت لاهلك فقط ، ولكنك للعرب كلهم وللمسلمين أجمعين .. » (٥٠) . .. ثم يكتب المقال تحت عنوان آخر يوحي فيه بأن مسؤولية فلسطين هي مسؤولية العرب والمسلمين، ويعتبر ما وقع لها كارثة حلت بالجميع .

وفي المقدمة يعبر عن عواطفه الحارة واحساسه الجارف نحو فلسطين حين يبين مكانتها في نفوس العرب والمسلمين باعتبار ان القدس ثالث الحرمين واول القبلتين ، ويحلل القضية الفلسطينية من الوجهة الدينية والتاريخية مؤكدا حق العرب فيها منذ الازل ويستعرض في الوقت نفسه امجاد فلسطين وتاريخها وبطولات ابنائها قديما وحديثا ، ولكنه يضيف بعدا اخر للقضية وهو البعد القومي بينما كثير من المقالات السابقة على مقاله هذا عنيت بالجانب الديني وبالعاطفة الدينية والحث عليها في عرضها للقضية او الدفاع عنها، وهذا يمثل تطورا للقضية كلها من جهة وتطورا في الحس القومي لدى الكتاب الجزائريين الذين لا يفرقون عادة ـ بين العروبة والاسلام ، بل وحتى الشعراء انفسهم حين كانوا يتحدثون عن هذه القضية او القضايا العربية الاخرى في تلك الفترة كانوا لا يفرقون بين الامرين .

وهذا التطور هو ما يفسر بداية المقال بالحديث عن العرب وامجادهم ومكانة فلسطين لديهم : « ولم يجهل اي عربي في اي مكان من الدنيا قيمة هذه البلاد العربية ذات الامجاد التالدة والاثار الخالدة .. » (٥١) .

حتى يقول : « لهذا فان كارثة فلسطين لم تكن بالامر الذي يخص اهلها فحسب .. ولكنها كانت مأساة عامة وكارثة عظمى حلت بالعالم

(٤٤ و ٤٥ و٤٦) المصدر السابق .

(٤٧) أنظر : « الشهاب » ١١ ـ ٩ ـ ١٩٣٤ .

(٤٨) من اهمها لجنة اغاثة فلسطين بالعاصمة وكان امينها العام «الامين العمودي» ، أما الامين المالي فكان «محمد بن البابي» .

(٤٩) أنظر : « البصائر » أعداد : ٢١ مايس ، ٧ جويليه، ١٣ أوت، ٣ ، ١٧ سبتمبر ، ٥ نوفمبر ، ٣١ ديسمبر ١٩٣٧ .

(٥٠) «البصائر» : ١٣ أوت ١٩٣٧ .

(٥١) المصدر السابق .

الاسلامي كله والعرب اجمعين ..» (٥٢)

وهذه الكارثة سببها قرار التقسيم كما ذكرنا ، ويصب غضبه على الانجليز حماة اسرائيل وعلى انتدابهم : « فقد : جلبوا لفلسطين المحبوبة العزيزة علينا كل بلاء وانزلوا بساحتها كل مصيبة وكل رزية وبلية من يوم عرفتهم بانتدابهم المشؤوم عليها وتدخلهم المقوت الملعون في شئون اهلها الآمنين المطمئنين .. »

ولكن الكاتب لا يريد فقط ان يحلل الاوضاع السياسية والحوادث المختلفة للقضية وانما هو داعية قبل كل شيء ، شأن المصلحين من الكتاب بل شأن الساخطين على الاستعمار في وطنه او في فلسطين، وكأنه يعبر عن واقع الجزائر في تلك الفترة المظلمة :

« ومن من الناس لا يلهج اليوم باسم فلسطين الشهيدة ، فلسطين الدامية فلسطين الثاكلة الباكية الحزينة ؟ فلسطين ضحية الاستعمار الغاشم ونهبة العدو القوي الظالم . فلسطين التي ارادت جمعية الامم او اذا قلنا ما يطابق الواقع ـ اراد الانكليز القساة البغاة تقديمها على مذبح مطامعهم ومصالحهم الخاصة لقمة سائغة للاكلين وغنيمة باردة لشذاذ العالم ونغاية الامم من الصهيونيين ..

والكاتب لا ينسى كفاح الفلسطينيين فيشيد بثوراتهم المتعاقبة دفاعا عن ارضهم وعرضهم وفي قمتها ثورة ١٩٣٦ ، ولكنه لا ينسى دور الملوك العرب في الضغط على الشعب الفلسطيني ، هؤلاء الملوك والحكام الذين استخدمهم الاستعمار لتحقيق مآربه التي التقت مع مأربهم خوفا من هذه الثورة التي قد تتطور الى احداث اخرى ربما تغير من واقع المنطقة ومن صورتها فيقول :

« .. حتى تدخل ملوك العرب ورجالات الاسلام في ايقافها رغبة في المفاهمة مع الانجليز .. » (٥٣) .

ويسخر الكاتب بعد ذلك من قرار التقسيم الذي يقضي بمنح المنطقة الغنية لليهود ، والمنطقة الجرداء للعرب ، اما الاماكن المقدسة فتبقى تحت الانتداب الانجليزي ، ويثور على هذه المحاباة التي تجانب الحق وتتماشى مع مطامع اليهود الصهاينة وتلبي مطالبهم . ويختم المقال بذلك النداء الذي صدر به مقاله يستنهض فيه الهمم ويحث فيه العرب والمسلمين الى الدفاع عن فلسطين .

والمقال في اسلوبه كما هو واضح يعبر عن عاطفة جياشة وصياغة قوية وعناية باظهار الحق العربي وتكتل العرب حول قضية فلسطين .

وهناك مقالات اخرى كتبها الشيخ ابن باديس « تسير على هذا النسق وتضرب على الوتر نفسه نشرها في البصائر « والشهاب » سنة ١٩٣٨ واحتج فيها باسم جمعية العلماء بوصفه رئيسا لها ـ على ما يجري في فلسطين وطالب الحكومة الفرنسية بان تتدخل وتوقف الضغط على أبناء فلسطين كما احتج على مشروع التقسيم الجائر .

والملاحظ ان الكتاب الجزائريين قبل الحرب الثانية كانوا دائما يوجهون سهام نقدهم الى الحكام العرب على تخاذلهم ومواقفهم المذبذبة تجاه القضية الفلسطينية : « رأينا امراء العرب يذهبون بانفسهم وبمندوبيهم مجتمعين لحضور حفلة تتويج ملك انكلترا بلندرة ، فلماذا لم ترهم يذهبون اليها محتجين على تنكيلها بجيران المسجد الاقصى وحماته ..) (٥٤)

واكثر من هذا ان علماء الدين الرسميين قد افتوا في هذه القضية من الناحية الشرعية وبينوا حق عرب فلسطين في وطنهم وديارهم وعرضوا للقضية من الوجهتين التاريخية والدينية ، وبينوا كيف ان اليهود على مر السنين عاشوا في البلاد العربية في أمن وسلام حتى وجدوا الانجليز فتآمروا معهم ضد فلسطين (٥٥) .

وبالطبع فان اسلوب هذه المقالات شبيه بالمقالات الاخبارية التي لا تعني بالجمال الادبي وانما تهتم بالافكار وتقيم الحجج المختلفة والبراهين العقلية والنقلية حول القضية .

ونشبت الحرب العالمية الثانية ، وتوقفت معها الصحافة الجزائرية اما مصادرة او خشية الاضطرار الى اتخاذ موقف مناصر للاستعمار في هذه الحرب مثلما فعلت جمعية العلماء « التي اوقفت صدور البصائر » تهذا السبب ، وتعلقت انظار العالم بما يجري في هذه الحرب من احداث خطيرة هزت وجدان الشعوب في كافة انحاء المعمورة .

ولما انتصر الحلفاء عادت قضية فلسطين الى المسرح العالمي وازداد اصرار الشعب الفلسطيني على نيل حقه ، كما اكتسح العالم العربي تيار القومية العربية وظهرت جامعة الدول العربية الى الوجود ، ورغم تناقضاتها ووجود حلفاء لانجلترا فيها فقد استبشر بها العرب واعتبروها بداية لتجمعهم بعد ان تنبهوا سواء في المشرق او المغرب العربي الى واقعهم ، اصبحت فلسطين تمثل قبلة سياسية بعد ان كانت فيما مضى قبلة دينية وغدت المحور الذي تدور حوله كتابات الادباء والكتاب وتلتف عواطف الجاهير العربية من محيطها الى خليجها.

وبدات السحب تتراكم في سماء فلسطين وتازمت الاحداث لتصل الى الذروة حين اصدرت الامم المتحدة قرار التقسيم الفعلي لفلسطين عام ١٩٤٧ ، فانفجر الغضب على ارضها وعلى امتداد الارض العربية، وعبر عن هذا الكتاب والشعراء الجزائريون والعرب جميعا وتفجرت قرائحهم بقصائد ومقالات حماسية ترفض هذا الظلم وتشجبه وتعكس ما يعتمل في نفوس الجماهير من سخط على الامم المتحدة والصهيونية والاستعمار الذين اتفقوا جميعا على تشريد الشعب العربي الفلسطيني ومحو كيانه .

ونلمح في الاساليب الادبية عاطفة صادقة وخوفا مما يجري في فلسطين وما يسيل على ارضها من دماء وما يلحق شعبها من ظلم وحيف ، ونجد مقالا لمحمود ابي زوزو ، ندرك من عنوانه مدى شعور الكاتب وعواطفه اذ جعله « الدم في ارض النبوة » (٥٦) . وقد عرف عن هذا الكاتب في مقالاته التي نشرها من بعد بجريدته « المنار » التي كانت موالية لحزب الشعب « الذي اصبح اسمه بعد الحرب الثانية » « انتصار الحريات الديموقراطية » قلت تعودنا منه اسلوبا هادئا رزينا فيه تحليل للاحداث وتأمل لنتائجها وبحث عن جذورها واسبابها شأن المعلقين السياسيين ، ولكنه في المقال المذكور وان عبر عن فكر عميق فانه استخدم اسلوبا ادبيا واعتنى فيه بالصياغة وبالجمال الادبي الى جانب ابراز عاطفته تجاه فلسطين وشعبها بل عاطفته تجاه الانسانية عامة ، ونشعر في المقال بعمق الجرح الغائر في نفس الكاتب ، فالتعبير بالدم والحديث عنه يشعر بالهول وبالمصيبة التي وقعت في فلسطين ، وهو يكرر لفظة الدم مرات عديدة ليعمق هذا الاحساس :

« الدم يسيل في ارض النبوة ..الدم يسيل في فلسطين ..! ليس هو دم الاضاحي والقرابين انه دم البشر » (٥٧) .

وهذه التعابير توحي بالحرب وما ينجم عنها من آلام ومآس، ففيها روح شاعرية واحساس حاد بالازمة ، ويزيد من عنف هذه المأساة وحدتها انها وقعت في ارض النبوة ويقارن بين الدم الذي يقدم على هذه الارض وبين ما يقدم من اجل القربان ، ويسوق ذلك في نوع من التشبيه والتاكيد « كأن ارض النبوة ملت دم الحيوان وتعطشت الى دم الانسان .

---

(٥٢) المصدر السابق .
(٥٣) المصدر السابق .
(٥٤) من مقال لابن باديس ـ البصائر سبتمبر ١٩٣٨ .
(٥٥) البصائر ٣ سبتمبر ١٩٣٧ .
٥٦) البصائر ٢٢ ديسمبر ١٩٤٧ .
(٥٧) المصدر السابق .

وكان بها حاجة شديدة الى هذا الدم الغالي !،
وكأن اهلها مستعدون لسد هذه الحاجة ؟ » (٥٨) .
ثم يسخر بالاسلوب نفسه من هيئة الامم المتحدة » :

« وكأن هيئة الامم المتحدة حريصة على تقديم قربان تغسل بـه آثامها فاختارت المذبح واختارت الاضاحي لان الآثام لا تغسل الا بالدم ولان السمـاء لا تقبل الا الدم والارض لا تحب الا دم الانسان !» (٥٩).

ولما كان الكاتب من المهتميـن بالانسان وصراعه الطويل من اجـل البقاء فانه يرد على من يتصور ان الطبيعـة تحب الدم وتسعى الـى اراقته بينمـا الحقيقـة ان التنازع على البقاء هو سبب ما يسيل من دم وسبب التناحر بين البشر حتى يقول :

« كان هذه السنة جرت بأن تسقى ارض بالماء لتنبت ما به قـوام « جسم » الانسان وبالدم لتنبت ما به قوامحرية الانسان !.» (٦٠) .

فهذا الحكم مستمد من تلك البديهية التي تقول بأن الحرية تؤخذ ولا تعطى وان شجرتها لا بد ان تسقى بالدم .

على ان الكاتب يقارن بين دعوة النبوة وادعاء الانسان الفاني ، فهذا الاخير يبحث عن العاجلة كما جاء في القرآن ، بينمـا الحكمـة او النبوة او الرسالة تدعو الى الآجلة ومن هذا التناقض بيـن القيمـة الانسانية النبيلة وبين الشر في الانسان وانانيته وبحثه عـن المصلحـة الذاتيـة ، من ذلك ينشأ الصراع من اجـل الحياة والبقاء والنوع ، والكاتب يقف حزينـا لما يجري بيـن البشر من صراع وقتال ودمفيصرخ من اعماقـه .

« رحماك ـ اللهم بهذه البشريـة المعذبة لقد فعلت فيها سنـة تنازع البقاء الافاعيل ! فملأت الارض بدمائها ولا تزال احشاؤها تلتهب عطشا الى هذه الدمـاء منذ فجر التاريخ البشري !» (٦١) .

ويعيد الى الاذهان قصة هذا الصراع بين الاخوين هابيل وقابيل ويستغرب هذا الموقف الذي لا نجد له تفسيرا سوى الفكرة الفلسفية السالفـة الذكـر وهي ان الارض عطشى للدماء البشرية .

ومن هذا الموقف يعرض لذلك الصراع الذي تتغلب فيه النوازع الذاتيـة والمنافع الفردية وتطغى على الحس الانساني وعلى عنصر الخير وقواه الطيبة ، ويختفي العقل ونوره ليحـل الشر وظلامه في نفس الانسان ، ولو تدبر الانسان هذالمـا لجأ الى القوة ولما اراق قطرة مـن دمـاء اخيـه .

« لو أشفق الانسان على نفسه ما حدثته نفسه باراقة دم اخيه، لانه حيـن يريق دم اخيه كأنمـا يريق دم نفسه ، ان الانسان ـ احب ام كره ـ اخو الانسان وان اختلفت الالوانواللغاتوالاديان ..» (٦٢).

فهذه النظرة الفلسفية المتعلقة كانت دائما نظرة المفكرين الانسانيين فـي كل العصور ولكـن تقابلها نظرة اخرى لا تحتكم الى المنطق اوالعقل بقدر مـا تحكم العاطفـة وتستنـد الى النظرة المادية الصرفة ، ومن ثمة فان الكاتب يقارن بيـن مطلب الروح ومطلب الجسد وغالبا ما يستجيب للاخيـر لانه يفكـر في اللحظـة الحاضرة فقط .

والمقال بعد ذلك يطنب في هذه الموازنة او المقارنة بين الاضداد مثل القسوة والرحمـة ، الجحيم والنعيم والآجل والعاجل وغيرها ، ويتالم للارواح التي تزهق في فلسطين وغيرها .

وبنظرة تتماشى مع مـا قدمنـاه من آراء الكاتب يشيـر الى ان « الامم المتحدة » آرادت ان تمثل فصـلا من فصول هذه الرواية« علـى حد تعبيره » ليقوم بتمثيلهالعرب واليهود في ارض النبوة » (٦٣) .

ويكون الرمز هنـا وان كان مباشرا صريحـا فانه يعبر عن الواقع فالمسرحيـة التي تمثلهـا الامم المتحدة في قضيـة فلسطين حرض عليها « الشيطان » ومـا الشيطان هنا سوى الاستعمار .

« وهل يريد الشيطـان ان يجري في ارض النبوة الا مـا يهتـز له الانبيـاء في قبورهم ؟ اذ هزموه في ازمنتهم فاراد ان ينتقم لنفسه بعد ازمنتهم !. فاختار لذلك ارضـا مقدسة لديهم ، لتكون مسرحـا لتمثيل وساوسه ، وتنفيذ اغراضه !. واختار هيئة الامم المتحدة لتضع هذه الوساوس في القالب اللائق بها ! (٦٤) .

ونلاحظ ان الكاتب بأسلوبه هذا وبمقارنته بين الاستعمـــار والشيطان تجنب التقريرية والمباشرة ، واستخدم التمثيل والرمزبالرغم من تفسيره وشرحـه .

« وكانت الاوتار التي وقع عليهـا الشيطان توقيعه المردي هيعروق العنصرية ، العنصريـة التي قهرت اليهـود في اوروبا وطردتهم مـن المانيـا .. (٦٥)

فاليهود اذن كانوا ضحيـة الاستعمار والعنصرية في اوروبا ،ولم يجدوا سوى ارض فلسطين يحتلوا بهـا شعوبا اخرى جديدة دفع ثمنها العرب بتأييد من الامم المتحدة التي لم تحكم بالحق ولا العدل.

وبعد ان يفيض الكاتب في الحديث عن الاستعمار الذي هو سبب مصائب الشعوب ومحنهـا يدخل في عرض اهداف الاستعمار البريطاني في فلسطيـن فهـو ينصح اليهـود بوقف الهجرة بعـد ان كان مسموحا بها حتـى يوجـد قوة تماثل قـوة العرب في عـددها وافـرادهـا يستخدمها وقت الحاجة ، ويحلل دور هذا الاستعمار تحليلا وافيا ينم عن وعي وادراك لهذا الدور الذي لعبه في ضيـاع فلسطين ، ويسـوق في معرض الحديث ما ردده بعض الكتاب لفائدة الانجليز :« انه لعالم سعيـد الذي يصبح فيه السلم مصلحة بريطانية ..» (٦٦) .

ويناقش هذا الرأي بفهم عميق ويقول ان سعادة العالم ليست متوقفـة على اتجاه مصلحة بريطانيا « وليست الارض التي تتجه اليها عناية الانجليز تحضى بالسعادة .. » (٦٧) . ويشهد علـى ذلـك مـا فعلـوه فـي فلسطيـن .

وبعد تحليلات فلسفية كثيرة حول قيم الحق والخير والجمال والتي لا مجال هنا لمناقشة الكاتب فيها ، يصل الى الحـل وهو ان يعـود اليهود من حيث أتوا ، يعودون الى الاوطـان التي طردوا منها وان يجلوا الانجليز عـن ارض فلسطيـن : « وتحل محلهم هيئة اممية مخلصة تقيم بهـا العدل والمساواة وتزيل الاحقاد وتبث التسامحوتساعد الشعب على التقدم ، وتهيء الجو للتفاهم بيـن العرب واليهود حتـى يتسنى لهم تشكيـل حكومة ديمقراطية » . (٦٨)

والملاحظ ان الشعار المرفوع اليوم والذي يدعـو فيه اصحابه الى تكويـن دولة ديموقراطية نادى به هذا الكاتب الجزائري منذ هـــذا التاريخ المبكر نسبيا ممـا يدل على ان العرب ليسوا متعصبين وانهـم حتى في تلـك المرحلـة كانوا واقعيين من جهـة ومن جهة اخرى دعاة سلم لا حرب اذ كانوا لا يفكرون في اخراج اليهود الذيـن لـم يفدوا مـن الخـارج .

ويختتم« ابو زوزو » مقاله بالتنديد بمواقف الصهاينة الذيـن يريدون فلسطيـن لهم وحدهم ، ويذكـر استعدادهم للحرب منذ زمن

---

(٥٨) المصدر السابق .
(٥٩) المصدر السابق .
(٦٠) المصدر السابق .
(٦١) المصدر السابق .
(٦٢) المصدر السابق .
(٦٣) المصدر السابق .
(٦٤) المصدر السابق .
(٦٥) المصدر السابق .
(٦٦) المصدر السابق .
(٦٧) المصدر السابق .
(٦٨) المصدر السابق .

طويل ونيتهم المبيتة في الغدر والنهب والاحتلال ، ويتوعدهم بموقف عام من المسلمين والعرب ومن الجزائريين وبكون الختام .

« وارواح الانبياء تنادي : لا تحملوا احدا على ارافة الدماء في ارض النبوة » . (٦٩) .

والمقال صرخة تخرج من اعماق انسان متألم يرثي لضعف الانسان وجبروته معا ، ويدعو الى السلام والخير والمحبة مما يدل على ان الجزائريين او فريقا كبيرا منهم كان يقف ضد الحرب وضد الاستغلال والعنصرية لانه عانى من هذا كله تحت الاحتلال الفرنسي ، ولذا كان احساس الجزائريين بفلسطين ومأساتها ـ كما اشرنا ـ احساسا حادا عميقا .

ويعد الشيخ محمد البشير الابراهيمي « في مقدمة من كتبوا عن فلسطين سلسلة من المقالات المتوالية في الجريدة الانفة الذكر بعد عودتها سنة ١٩٤٧ .»

وقد ألم في مقالاته هذه بالقضية من شتى اطرافها ، عبر عن المأساة باحساس وانفعال صادقين ، كما عبر عن ارتباط الشعب الجزائري بها وركز على العاطفة الدينية واعتبر ان مسؤولية المسلمين في هذه القضية مثل مسؤولية العرب .

ويبدأ الابرهيمي مقاله الاول بالنداء : « يافلسطين ان في قلب كل مسلم جزائري من قضيتك جروحا دامية ، وفي جفن كل مسلم جزائري من محنتك عبرات هامية ..» (٧٠) .

ولكنه يلتمس العذر للجزائريين اذا لم يستطيعوا ان يفعلوا الشيء الكثير لفلسطين ولم يتمكنوا من مساندة شعبها الشقيق مساندة فعالة وعذرهم واضح وهو : « الاستعمار الذي يحول بين المرء وداره ، والمسلم وقبلته .. (٧١) .

فما تعاني منه فلسطين تعاني منه شقيقتها الجزائر ، فكلتاهما ترزحان تحت وطأة الاحتلال وان تنوعت اساليبه واختلفت اجناسه ، لكن النتيجة واحدة والرزء واحد فالكاتب اذن يشعر بوحدة الظروف وبالمأساة العامة في كلا البلدين .

وبمثل ما بدأ به من اسلوب منمق مسجوع ونبرة حزينة تنم عن شعوره بالكارثة يستمر الكاتب في المقارنة بين حب الوطن الذي ينشأ من الارتباط بالارض وبين حب فلسطين التي تمثل رمزا دينيا .

« يا فلسطين اذا كان حب الاوطان من اثر الهواء والتراب والمآرب التي يقضيها الشباب ، فان هوى المسلم ان فيك اولى القبلتين وان فيك المسجد الاقصى الذي بارك الله حوله ، وانك كنت نهاية المرحلة الارضية وبداية المرحلة السماوية من تلك الرحلة الواصلة بين السماء والارض صعودا ، بعد رحلة آدم الواصلة بينهما هبوطا . (٧٢)

واذا كانت هذه مكانتها الدينية ، فان مكانتها التاريخية ترجع الى الفاتحين الاولين الذين حرروها من الظلم ، وجعلوها منطلقا لنشر الدين الجديد وطهروها من « رجس الرومان » مثلما طهروا اطراف الجزيرة قبلها من « رجس الاوثان » فهو يقابل بين فلسطين وبين مكة ، ويضعها في المكان الذي ينبغي ان توضع فيه .

ويجدها الكاتب فرصة سانحة لان يعود الى التاريخ لا محللا مستكنها لاحداثه ومستخلصا العبرة ، وانما يعود اليه ليحرك النفوس والقلوب وليصل الى النتيجة التي يريدها وهي ان فلسطين عربية وان الاسلام حررها من الغزاة بعد ان استبيح حماها مرات عديدة على يد البابليين والرومان وغيرهم . ثم يربط بين الماضي والحاضر ويسخر من ادعاء الصهاينة ومن « وعد بلفور » المشؤوم : « ما بال هذه الطائفة تدعي ما ليس لها بحق ، وتطوي عشرات القرون لتصل بسفاهتها وعد موسى بوعد « بلفور » وان بينهما لمدا وجزرا من الاحداث وجذبا ودفعا من الفاتحين (٧٣) .

والكاتب هنا لا يستخدم الحجج العقلية في اثبات الحق العربي في فلسطين كما حاول غيره أن يفعل وانما يضرب الامثلة من التاريخ ساخرا من اليهود الذين لم يدافعوا عن فلسطين فيما تعرضت له من احتلال قديم وغزوات في الماضي البعيد وانما الذي حررها العرب « وانما يستحق التراث من دافع عنه وحامي دونه (٧٤) .

فالعرب هم أحق بفلسطين منذ عمر بن الخطاب « وابطال اليرموك » الذين حرروها من الرومان وكذلك لم يحررها من الصليبيين ويدفع اذاهم عنها الا صلاح الدين وابطال حطين .

ويستمر الكاتب على هذا النسق فيعيد الى الاذهان ما شهر به العرب من عدل استظل به الاسرائيليون : « وعاش فيها بنو اسرائيل تحت راية الاسلام وفي ظل حمايته آمنين (٧٥) لم يتعرضوا لاي ظلم او اكراه ولكنهم لم يتغيروا وما يجري في فلسطين اشبه بما وقع في التاريخ ذلك أن وعد موسى لبني اسرائيل كان ردهم عليه :« وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » كما ان الصهاينة اليوم لم يثقوا بوعد بلفور حتى ضمن لهم الانجليز ان يحتموا بقوتهم :« ولو ان السيوف الانجليزية ،اغمدت والذهب الصهيوني رجع الى مكانه ، وعرضت القضية على عدل وعقل لا يستهويه بريق الذهب ولا يرهبه بريق السيوف لقال القانون : ان ثلاثة عشر قرنا كافية للتملك بحق الحيازة، وقال الدين : ان احق الناس بمدافن الانبياء هم الذين يؤمنون بجميع الانبياء ، وقال التاريخ : ان العرب لم ينزعوا فلسطين من اليهود ،ولم يهدموا فيها دولة قائمة ، ولا ثلوا لهم عرشا مرفوعا، وانما انتزعوها من الرومان ، فهم احق بها من كل انسان ..»(٧٦)..

ثم ان الكاتب بعد ان فند حجة اليهود في زعمهم بأن فلسطين ارض الميعاد ، وهي الفكرة التي بنوا عليها مؤامراتهم ، وبعد ان ضرب الامثلة وساق الحجج الشرعية والتاريخية والدينية ، بين ان الصهيونية اذا كانت قد اعتمدت على المال وشراء الضمائر وعلى الارهاب لاحتلال فلسطين ، فان دوافعها دوافع استعمارية مثل اي استعمار اخر ، ولكن الصهيونية تزيد بأنها استعمار جديد في اسلوبه وفي غاياته وحججه .

بعد ذلك يعود الكاتب الى التأكيد على حق العرب في فلسطين كما يعبر عن تعاطف الشعب الجزائري مع شقيقه الفلسطيني وان ما يجري هناك انما هو امتحان للعرب جميعا :« ان قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائركم وهممكم واموالكم ووحدتكم ، وليست فلسطين لعرب فلسطين وحدهم ، وانما هي للعرب كلهم ..» (٧٧) .

وهنا نلحظ ان الكاتب يرى في المأساة محنة من الله ، وهي نظرة تتماشى وفكرة الدين وموقفه كعالم من رجال الاصلاح ، ولكن في الوقت نفسه يجعل من قضية فلسطين قضية عربية ، وهذا الخط رأيناه لدى العقبي بل ان هناك تعبيرا واحدا يلتقيان فيه مع غيرهم من الكتاب في تلك الفترة وهو ان فلسطين للعرب جميعا .

ولا شك ان الالحاح على هذه الفكرة يقصد منه استنفار العرب للذود عن فلسطين باعتبارها جزءا من الامة العربية ، ولا يتركونها

---

(٦٩) المصدر السابق .

(٧٠) عيون البصائر : محمد البشير الابراهيمي ص : ٤٨٣ ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣ (والمقالات نشرت تباعا في البصائر عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ .

(٧١) المصدر السابق .

(٧٢) المصدر السابق ص : ٤٨٣ .

(٧٣) المصدر السابق ص ٤٨٤ .

(٧٤) المصدر السابق .

(٧٥) المصدر السابق .

(٧٦) المصدر السابق ص : ٤٨٥ .

(٧٧) المصدر السابق ص : ٤٨٦ ـ ٤٨٧ .

تقاسي الاحتلال وحدها وتجابه مصيرها بنفسها عزلاء ضعيفة ، بل ان الابراهيمي يصرح بأن استرداد فلسطين لا يكون بالشعر والخطب وانما « بالتصميم والحزم والاتحاد والقوة .. » (٧٨) .

ويكشف في المقال الثاني عن المهزلة التي انتهت بقرار التقسيم الذي صدر بتأييد من الامم المتحدة ، واغتيلت القضية وتوارى سلطان العقل والعدل وحل محله سلطان المال والمصلحة « وتصدع ليل فلسطين الداجي عن فجر كاذب العيان ..» (٧٩) .

واذا بأوروبا وامريكا تسفران عن وجههما وتبرزان مطامعهما وتتنكران لكل القيم والمبادىء الانسانية ويتآكد العرب بأن « حق الشرق لاولي له في الغرب ولا نصير ، وجاء بها هذا المجلس الذي يسمونه ـ زورا ـ مجلس الامم المتحدة شنعاء لا توارى من أحكام القاسطين واحلام الطامعين ..» (٨٠).

ويبرز الكاتب التناقض بين الحق والباطل ، بين اولئك الذين « يخاطبون الضمير والعقل » وهم العرب ، وبين اليهود الذين « يحملون الابهام المضلل ، والكيد المبيت ، والمكر الخفي ، والدعاوي المقطوعة من ادلتها .» (٨١) ، وتكون الواقعة فاذا بالموازين الاخلاقية تختل واذا بالتاريخ يتعرض لاكبر محنة واذا بالباطل يجد طريقه للنجاح واذا بقانون القوة يستمر كما يشهد تاريخ الاقوياء مع الضعفاء : « وانصت التاريخ ليسجل الشهادة واستشرف الكون لينظر هل تخرق للاقوياء عادة ، ونشر الاصل والدعوى وتعارضت البينة والشبهة ، وافصح الحق واتضح ،ولجلج الباطل وافتضح، ولكن تلك الدول المتحدة على الباطل الجمها الحق بحججه واجرتها الحقيقة بوضوحها ، فحكموا الانتخاب .. وليت شعري اي موضع للانتخاب هنا ؟ .. » (٨٢) .

ويستمر في السخرية من مهزلة الانتخابات ، ومن المصوتين بل مجال للتصويت ، وكانت النتيجة تحديا للعرب وحقهم وتاريخهم ،وحتى التقسيم كان فيه محاباة لليهود على حساب العرب .

ويتوجه الكاتب بعد ذلك الى العرب انفسهم ليفكروا في واقعهم ويبحثوا لهم عن طريق غير الامم المتحدة ، وهذا الطريق هو وحدة العرب ، وفلسطين التي كانت في الماضي منطلقا للفتوحات العربية لا بد ان تصبح اليوم منطلقا لتوحيد كلمة العرب ، فاذا كانت في ماضيها مباركة عليهم لامور كثيرة فانها في حاضرها مباركة عليهم كذلك . « فما اجتمعت كلمتهم في يوم مثلما اجتمعت في يوم تقسيمك ، ولقد فرقهم الاستعمار الخبيث في عهدهم الاخير ، فما تنادوا الى الاتحاد مثلما تنادوا الى الاتحاد في سبيلك » (٨٣) .

ويمضي هكذا في خطابه لفلسطين حتى يقول : « اما والله يا فلسطين، لكأن اعداء العرب احسنوا اليها بتقسيمك من حيث ارادوا الاساءة ..» (٨٤) .

ثم يتجه بالقول الى العرب وقد بلغ غيظه قمته وبلغ سخطه مداه فيصب عليهم ثورته ونقده اللاذع ، ويتهمهم بانهم لم يفعلوا شيئا لفلسطين سوى تلك الخطب والاشعار وانعقدت المؤتمرات واقيمت المظاهرات ، ولكن ليست هذه وسائل التحرير ونيل الحق، واذا كان العرب قد ثاروا اليوم فانما جاءت ثورتهم متأخرة ، فالكاتب يفتح اعينهم على المأساة التي لا تتمثل في التقسيم الذي هو حلقة من حلقاتها ، ولكنها بدأت منذ وعد بلفور :

« يا قوم ! ما ظلمت فلسطين يوم قسمت ولكنها ظلمت يوم بذل « بلفور » وعده للصهاينة باسم حكومته، وما منا ـ اهل هذا الجيل ـ الا من شهد يوم الوعد ، وشهد يوم التقسيم ، وشهد ما بينها ، ومن عرف مصادر الامور عرف مواردها ، فانظروا ـ ويحكم ـ ماذا فعل الصهيونيون من يوم الوعد الى يوم التقسيم، وانظروا ماذا فعلنا ..»(٨٥)

فالكاتب يدين الجيل الذي عاصر الوعد المشؤوم وسكت او تجاهل العواقب والنتائج ، واكتفى بالقول بانه صاحب حق ولم يبحث عن اسلوب اخر او عن اساليب مختلفة يدافع بها عن هذا الحق ، بينما الصهيونيون استخدموا كل السبل لتحقيق اغراضهم ، وساعدهم العرب على ذلك بتفرقهم وخلافهم وغفلتهم واعتمادهم على منظوم القول او منثوره ، ولم يتعظوا حين وعدهم الانجليز بما اخلف بعد ذلك .

وهو بذلك يسير في الاتجاه نفسه الذي سار فيه سابقوه منذ سنوات طويلة وبينوا فيه سياسة بريطانيا وكذبها على العرب واسلوبها المراوغ في هذه القضية وفي غيرها من القضايا التي تتعلق بالازمة العربية ، وكذلك فان الكاتب يؤنب العرب على تجاهلهم للعصر وما يتطلبه من استعداد في مختلف المجالات بينما فعل اليهود ذلك منذ « وعد بلفور » ،بحيث اعتمدوا على المال والعلم والصناعة ، واستند العرب على « الاقوال والاحتجاجات التي هي سلاح الضعفاء » .(٨٦) .

ويستمر في المقارنة بين العرب واليهود من شتى النواحي الاخلاقية والعددية ومعطيات جديدة ،ثم يكرر رأيه السابق في ان قرار التقسيم انما هو تأديب الهي للعرب ولكن يرى ان صدمة كهذه تحتاجها الامم كي « ترجها رجا وتزجها في المضايق زجا لتنفض عنها النمول والضعة .. » . (٨٧) .

والعرب محتاجون كما يقول الكاتب في ختام مقاله الى « الطراز العالي » من البطولة الذي تتسامى فيه النفوس وترتفع وتنتصر .

وفي مقال آخر بعنوان « العرب واليهود في الميزان عند الاقوياء»(٨٨) يناقش الكاتب نظرة الدول القوية الى العرب وكيف انها تختلف عن نظرتها الى اليهود ، فقد اختبروهما وعرفوا كيف يفكر كل منهما، ووازنوا بين مصالحهم مع هؤلاء ومع اولئك ووجدوا ان كفة اليهود ارجح من كفة العرب .

على ان الكاتب ـ جريا مع رؤيته ـ يرى ان هؤلاء الاقوياء نسوا سلاحا قويا وهو سلاح الروح ، ويشتد سخطه على الدول التي ناصرت اليهود وشاركت في قرار التقسيم ويتوعدهم : « ان العرب اذا سيموا الحيف حكموا السيف وانهم سيأخذون حقهم بالدم الاحمر ،في حين أراد اليهود استلابه منهم بالذهب الاصفر .. » (٨٩) .

ومرة اخرى يبلغ به الغيظ مداه فيتوعد الجميع بحرب طاحنة على ان نقمته وسخريته تنصب على الحكومات والدول التي باعت فلسطين وليس لها الحق فيها ، بل باعت ارضا وتاريخا وشعبا اعرق من هذه الدول المصطنعة : « يا بخس فلسطين ! .. أيبيعها من لا يملكها ويشتريها من لا يستحقها ؟ يا هوان فلسطين ! أيكون من ذوي الحق في بيعها تلك الدويلات التي لم تخلق خلقا طبيعيا وانما خلقتها المنافسات ، والتي لم يبلغ الكثير منها جزءا مما بلغته فلسطين من مجد في التاريخ ، وسابقة في الحضارة ، ويد في نفع البشرية ، بل لم تبلغ مجتمعة ما بلغته فلسطين من احتضان النبوات

---

(٧٨) المصدر السابق ص : ٤٨٧ .
(٧٩) المصدر السابق ص : ٤٨٨ .
(٨٠) المصدر السابق ص : ٤٨٨ .
(٨١) المصدر السابق ص : ٤٨٨ .
(٨٢) المصدر السابق ص : ٤٨٨ ـ ٤٨٩ .
(٨٣) المصدر السابق ص : ٤٩٠ .
(٨٤) المصدر السابق ص : ٤٩٠ .
(٨٥) المصدر السابق ص : ٤٩٠ .
(٨٦) المصدر السابق ص : ٤٩١ .
(٨٧) المصدر السابق ص : ٤٩١ ـ ٤٩٢.
(٨٨) المصدر السابق ص : ٤٩٣ .
(٨٩) المصدر السابق ص : ٤٩٤ .

واستنباط الشرائع والعلوم والحكم .. » (٩٠) .

وفي نهاية المقال يسجل الكاتب شانه في مقالاته الكثيرة . بأن فلسطين وديعة بين ايدي العرب ويدعوهم الى التضحية والنضال، وهي سمة من سمات المقال الادبي الاصلاحي في هذه القضية وغيرها من القضايا الوطنية والقومية .

اما في المقال الرابع من هذه السلسلة والذي وضع له الكاتب عنوان : « ماذا نريد لها وماذا يريدون » (٩١) فهو يوازن بين ما يريد العرب لفلسطين وما يريده اليهود لها ويفاضل بين مطامع هؤلاء وبين احلام وامانى اولئك ، ويعدد مطامع اليهود التوسعية في ان تصبح أرض النبوات نقطة انطلاق نحو تحقيق حلمهم فياسرائيل الكبرى .

وما من شك في ان الابراهيمي مثل غيره من الكتاب الجزائريين قد وعوا دور انجلترا في المؤامرة ضد فلسطين ، لذلك فانه يعقد مقالا خاصا بهذا الموضوع « الانجليز حلقة الشر المفرغة » (٩٢) باسلوب اكثر عنفا واشد هجوما لان سياسة الانجليز متحيزة ظالمة ، ولانهم هم سبب الكارثة ، فهم في رأي الكاتب اشد سوءا من الشيطان ، ويقارن بينهم وبينه ، وتكون المقارنة طريفة حين يسوق التشابه او المفارقة العجيبة ، فاذا كان الشيطان يمكن ان يطرد بالتعويذ وبالايمان وبقظة الشعور فان اسلوب طرد الانجليز يحتاجالى وسائل مادية لا معنوية : « ايها العرب : ان الانجليز هم اول الشر ووسطه وآخره ، وانهم كالشيطان ، منهم يبتدىء الشر واليهم ينتهي ،وانهم ليزيدون على الشيطان بان همزاتهم صور مجسمة تؤلم وتؤذي وتقتل وجنادل مسمومة تهشم وتحطم وتخرب، لالة تلم ثم تنجلي، وطائف يمس ثم يخنس ووسوسة تلابس ثم تفارق ، ويزيدون عليه بانهم لا يطردون بالاستعاذة وتذكر القلب ويقظة الشواعر ، وانما يطردون بما يطرد به اللص الوقح من الصفع والدفع والاحجار والمدر ..» (٩٣) .

ويستمر على هذا النحو من المقارنة الساخرة اللاذعة والتهكم المر والهجاء العنيف بهذه الصور البارعة التي يندر ان نجد لها مثيلا فيما كتب في المقارنة بين الانسان من جنس البشر وبين الشيطان من جنس الجن ، بين صنفين يختلفان في العنصر ويلتقيان في الغاية والهدف ، حتى ان الكاتب يجسد لنا صورة اخرى للشيطان اشد بشاعة من التي يعرفها الناس او يقرؤونها حول الشيطان ، وقد ساق هذه الصورة للاستعمار الانجليزيلا من اجلتصوير موقفهودوره في المؤامرة فحسب ولكن ليشبه العرب الذين اغتروا به وبنعومة وعوده ومعسول كلامه ، وهو ما فعل ذلك الا لانه عرف ضعف العرب وادرك مدى خضوعهم له ولسياسته كما عرف روح الذل في حكامهم :« وعجم امراءكم فوجد اكثرهم منذلك الصنف الذي تلين انابيبه للعاجم ، وتدين عروبته للاعاجم » .(٩٤) .

والكاتب يرى ان هذا الخضوع الذي اظهره الحكام العرب سببه ظنهم انهم فقراء والانجليز اغنياء ، وهذا وهم ففناهم هو من عرقالعرب واموالهم وخيراتهم ، وينبه الى ان العرب لو تفطنوا الى ذلك فان الانجليز سيظهر فقرهم ويصبح الاسد البريطاني مثل الهر الذي انحسر شعره فظهر هزاله ، وهي صورة طريفة ايضا للاستعمار الذي يمتص خيرات الشعوب فيظهر قويا ولكن قوته جاءت من جهل هذهالشعوب: « فلو ان كل امة استرجعت شعراتها من تلك اللبدة التي تكمن وراءها الرهبة ، لامسى الاسد هرا مجرود العنق ،معروق الصدر ، بادي الهزال والسلال .. » (٩٥) .

ويكون الكاتب صريحا في تعريفه للعرب ، اذ يحلل اوضاعالعالم العربي في تلك الفترة ، فبالرغم من وجود « الجامعة العربية » التي تظاهر الاستعمار الانجليزي بتأييده لها ، فانه يبيت امرا اخر يفرق به العرب في المستقبل كما فعل في الماضي ، فهناك قضايا كثيرة في العالم العربي ما زال الانجليز يمسكون بخيوطها ، لذلك فان الكاتب يلح على الوحدة الحقيقية ويقول بانه لكي تصبح « جامعة الدول العربية » اداة للوحدة فلا بد أن تسند بجامعة تبنى على ارادةالشعوب: « انكم لا تردون كيدهم بقوة جامعة الدول العربية حتى تسندوها بجامعة الشعوب العربية ، فحركوا في وجوههم تلك الكتلة متراصة يرهبوا ثم يذهبوا .. » (٩٦) .

ونظرة الكاتب هنا للوحدة العربية الحقيقية نظرة سليمة يؤيدها التاريخ الواقع ويؤكدها تطور الاحداث .

ومع أنه فيما سبق قد اطنب كثيرا في بيان مسؤولية العرباتجاه فلسطين فانه في مقال اخر بعنوان « واجباتها على العرب » (٩٧)يعبر عن مشاعره ويبين الدوافع التي دفعته للعناية بقضية فلسطين ويشرح لماذا تؤرقه هذه القضية .. ويجيب بانه يعتبر نفسه فلسطينيا بحكم عروبته واسلامه ذلك أن عروبته تملي عليه ان يجند قلمه للدفاع عن فلسطين واهلها مثل ما يمليه عليه اسلامه ، وهو يبرر ذلك بأمور كثيرة يستمدها من الانتماء ومن العقيدة والتاريخ : و « كاتبهذه السطور عربي يعتز بعروبته الى حد الغلو ، ويعتد بها الى حدالتعصب، ويفخر بأبوة العرب له الى حد الانتخاء ، ما يود ان له بذلك كلهجميع ما يفخر به الفاخرون من أحساب ، فاذا أدار الضمائر في هذه المقالات على منهج التكلم وقال : أنا ، ونحن ، وقلنا ،وفعلنا ،ولا نرضى ولن نرضى فهو حقيق بذلك .. » (٩٨) .

فالابراهيمي بعد ان اوضح انتماءه وان الضمائر مهما اختلفت وصفا للمفرد او الجماعة ، فان النهاية هي شيء واحد ، انه عربي ولذلك فمن حقه ان يعبر عن فلسطين وعن ابنائها فهو منهم واذا : « حشر نفسه في العصبة الذائدة عن فلسطين واشركها في العصبية الغالية لفلسطين ، فليس بمدفوع عن ذلك ، لانه عربي اولا ، ومسلم ثانيا ، وفلسطيني بحكم العروبة والاسلام ثالثا ، فله بعروبته شرك في فلسطين من يوم طلعت هوادي خيول اجداده علىالبلقاء والمشارف ، وتصاهلت جيادهم باليرموك ، تحمل الموت الزؤام للاروام، وله باسلامه عهد لفلسطين من يوم اختارها الباري للعروج الى السماء ذات البروج، وله الى فلسطين نسبة من يوم قال الناس ، مسجد عمر ، بل من يوم قالوا غزة هاشم فاذا لم يقم بالحق ولم يف بالعهد وسم بالعقوق لوطنه الاكبر ، ووصم بالخيانة لدينه الجامع .. » (٩٩) .

ولا ينسى الكاتب بعد ذلك ان يؤكد ما سبق ان قاله وهو الرابطة القوية التي تربط بين الجزائر وفلسطين كجزأين من امة واحدة ، وهو بهذا يرد على مزاعم فرنسا في ذلك الحين من ان الجزائر جزء منها، والابراهيمي يستغل المناسبة بذكاء ليضرب على هذا الوتر مؤكدا على عروبة الجزائر وانتمائها القومي الامر الذي يفسر انفعالها لما يجري في فلسطين : « وهذا الوطن الذي نبتنا في ثراه ، وغذينا بثمراته، وسقينا عذبه ونميره ، وتقلبنا بين جباله وسهوله في النضرة

---

(٩٠) المصدر السابق ص : ٤٩٥ .
(٩١) المصدر السابق ص : ٤٩٧ .
(٩٢) المصدر السابق ص : ٥٠١ .
(٩٣) المصدر السابق ص : ٥٠١ .
(٩٤) المصدر السابق ص : ٥٠١ .
(٩٥) المصدر السابق ص : ٥٠٣ .
(٩٦) المصدر السابق ص : ٥٠٤ .
(٩٧) المصدر السابق ص : ٥٠٥ .
(٩٨) المصدر السابق ص : ٥٠٥ .
(٩٩) المصدر السابق ص : ٥٠٥ .

والنعيم ، واودعنا فيه الذخائر الغالية من رفات الاجداد ـ وطن عربي المنتسب ، يشهد بذلك القلم واللسان ، والاسماء والافعال ، وتشهد بذلك التواريخ المكتوبة ، والاخبار غير المكذوبة ، فاذا تظلم وتالم لفلسطين ، وامتعض وارتمض للعدوان عليها ، واذا نهض يواسي ويعين ، ويسعف ويسعد فهو حقيق بذلك وان ذلك لبعض حق فلسطين عليه ..» (١٠٠) .

فالكاتب بهذه المقدمة الطويلة لمقاله اراد ان يمهد للموضوع الاصلي وهو واجب فلسطين على العرب ، ويرفض ان يكتفوا بالتفجع والتوجع والتظلم والتألم والاقوال ، وانما يطالب باشياء اخرى ، يطالب بالوان من المساعدة والتاييد اكثر حسما وفعالية ، كما يطالب بالتصميم على النضال حتى النصر ، والحسم بدل التردد ووحدة الرأي بين القادة ونبذ الخلافات ، ويحمل الكتاب والشعراء المسؤولية كما حملها للحكومات والشعوب ، ويطلب منهم ان يبثوا الوعي والحماس في النفوس وان يثيروا الهمم ويفجروا الطاقات في الجماهير .

ويختم بأن العرب لو وجدوا هذا كله لاصبح لهم شأن في الغرب غير ما هو عليه وفي المجتمع العالمي عامة .

وقد عبر الكاتب في مقال اخر عن عروبة المغرب العربي (١٠١) وعن تجاوب ابنائه مع عرب فلسطين ، ولكنه يشرح كيف ان وضعهم يختلف عن وضع عرب المشرق العربي ، اذ ان ظروفهم صعبة تحت الاحتلال الفرنسي الذي يشجع اليهود ويتغاضى عن اعمالهم ، فاذا جمعوا الاموال فانه لا يحرك ساكنا واذا فتحوا باب التدريب على السلاح في معسكرات خاصة بهم تجاهل ذلك ، بينما لو فعل العرب في الجزائر مثل هذا « لقامت قيامة الاستعمار الفرنسي ..» (١٠٢) .

ولقد سجل الكاتب المفارقة العجيبة التي عاصرها حين كان الجزائريون يتخفون ليهاجروا الى فلسطين ويشاركوا في الحرب ضد المحتلين فيقال لهم انهم « فرنسيون » او « مدجنون » (١٠٣) وحتى جمع الاموال لفلسطين كان من المحرمات عليهم .

وتملأ الحسرة نفسه وهو يشاهد هذا التواطؤ من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية ومن اوروبا كلها ضد الجزائر والعرب ، ويظهرون روحا عنصرية مالها نظير في حين يتهمون العرب بالعنصرية ، ويتكهن بمصير العنصريين اينما كانوا ثم يسخر من « العالم المتحضر » الذي اصبح يهوديا اكثر من اليهود انفسهم :« وآمنا بأن السحر الذي ابطله موسى قد أحياه اشياعه ولكن بغير ادواته ، ابطله بعصا الخشب واحيوه بحبال الذهب .. » (١٠٤) .

وتثور فيه نخوة العربي او فروسيته فيدعو الاعداء ، اعداء العرب الى المبارزة ، بحيث يكون جيش الصهاينة اكثر من جيش العرب بمقدار الثلث بشرط واحد هو التكافؤ في السلاح ، فاذا انتصر الاعداء سلم العرب بزعمهم في فلسطين ، واذا انتصر العرب تبقى فلسطين عربية كما كانت « تظل اليهود الاصلاء بالرعاية والحماية ، وتجلي اليهود الدخلاء ..» (١٠٥) .

وهذه بلا شك نظرة ساذجة نادى بها « الامير عبدالقادر » ايام حربه ضد الاحتلال الفرنسي حين طلب من القادة الفرنسيين مبارزته

(١٠٠) المصدر السابق ص : ٥٠٦ .
(١٠١) عنوان المقال هو : « اما عرب الشمال الافريقي ...» المصدر السابق ص : ٥١١ .
(١٠٢) المصدر السابق ص : ٥١١ .
(١٠٣) اي يعيشون تحت الحصار والمراقبة الشديدة في ظل الاستعمار ، والكاتب يشير بهذا الى الظلام الذي كان يعيش فيه الجزائريون في ذلك الوقت .
(١٠٤) المصدر السابق ص : ٥١٢ .
(١٠٥) المصدر السابق ص : ٥١٣ .

وينتهي الامر ، ولكن الابراهيمي ، في الواقع ، نادى بهذا الحل تعبيرا عن غيظه وتحديا للاعداء وردا على تكتلهم ضد العرب .

يؤكد هذا خروجه عن الموضوع الذي بدأ به المقال ليعود اليه بقوله : « ونرجع الى عرب الشمال الافريقي ..» (١٠٦) فقد ابتعد عن الموضوع لان الاحداث كانت تضغط عليه وعلى نفسه فالتجأ الى الحل الفروسي بدل المناقشة والتحليل ، ولكنه عاد الى موضوعه ليبين ان عرب هذه المنطقة يمكنهم ان يساندوا عرب فلسطين بالمال ، اما المشاركة في الحرب بالرجال فان هذا ما لا تتيحه السلطة الاستعمارية للعرب بينما تمنحه لليهود (١٠٧) .

وفي مقال اخر « قيمة عواطف المسلمين في نظر فرنسا » نجد الكاتب يعرض لموقف فرنسا من قضية فلسطين وبوجه خاص موقفها من الجزائريين في هذه القضية .

وينقد تأييدها للتقسيم ولم تراع عواطف الجزائريين ، ويعزو ذلك الى حقد استعماري وقبل هذا ، يعزوه الى سيطرة اليهود في فرنسا : « نحن لا نجهل تغلل الصهيونية في فرنسا ، ولا نجهل تحكم اليهود في مرافقها الحيوية وفي جهازها الحكومي ، بل في كيانها الذي هي به امة ، بل نعد فرنسا ومستعمراتها كلها مستعمرة واحدة يهودية ، بل نستغرب مطالبة اليهود بوطن قومي ، مع ان فرنسا كلها وطن قومي لهم ..» (١٠٨) .

وهذا الحكم لم يصدر من الكاتب عن تجن او عن نظرة ضيقة او حماس قومي وانما عبر عن واقع كانت الحركة الصهيونية تحتل فيه مكانا بارزا في السياسة والاعلام والاقتصاد الفرنسي ، كما كانت وما زالت تهيمن في هذه المجالات كلها في بلدان اخرى حتى اليوم ، ولعل امريكا تمثل قصة هذا النفوذ والسيطرة في عصرنا هذا ، اما في ذلك الوقت فان الكاتب يتحدث عن فرنسا لانها كانت تستعمر الجزائر والمغرب العربي كله ، ويكرر ما ذكره سابقا من ان فرنسا لم تفكر لا في عواطف عرب هذه المنطقة ولا في مصالحها معهم ، وانساقت وراء شعورها الخاص او تحت تأثير الصهيونية واعلنت عن نواياها المماثلة للصهيونية وتحت تأثير امريكا « ودولاراتها » مع آن فرنسا ترددباستمرار بانها لا تعادي المسلمين فهي تعلن امرا وتفعل ضده (١٠٩) .

ونحس بالمرارة في نفس الكاتب من هذا الموقف فيعبر عن يأسه وهو شعور كان يحسه الجزائريون في تلك الفترة ويدفعهم الى الغضب من هذه التصرفات غير العادلة .

ولما وقعت الكارثة ، وخسر العرب المعركة عام ١٩٤٨ حزن الجزائريون وازدادت المرارة في نفوسهم ، لان هزيمة العرب تصيبهم في الصميم وتشعرهم بالدونية والاحتقار سواء من المعمرين او من اليهود الصهاينة ، ويأتي الشعر ليعبر عن هذا الحزن وعن هذه المرارة اكثر من النثر لانه اسرع في التعبير عن الانفعال في تلك اللحظة التي عصفت بالعرب جميعا لاهل فلسطين فحسب ، ولكن الابراهيمي ينفعل بقوة لهذه المحنة . فيكتب فيها خواطر تشبه الشعر يصور بها ما لحق الفلسطينيين من حيف وتشرد ، ويستغل مناسبة عيد الاضحى فيتفجر قلمه ويهاجم هؤلاء الذين يفرحون في العيد وفلسطين يقتالها اليهود: « النفوس حزينة ، واليوم يوم الزينة ، فماذا نصنع ؟ اخواننا مشردون ، فهل نحن من الرحمة والعطف مجردون ؟

تتقاضانا العادة ان نفرح في العيد ونبتهج ، وان نتبادل التهاني ، وان نطرح الهموم وان نتهادى البشائر : وتتقاضانا فلسطين ان نحزن

(١٠٦) المصدر السابق ص : ٥١٣ .
(١٠٧) المصدر السابق ص : ٥١٤ ـ ٥١٥ .
(١٠٨) المصدر السابق ص : ٥١٦ ـ ٥١٧ .
(١٠٩) المصدر السابق ص : ٥١٧ .

لمحنتها . ونغتم ، ونعني بقضيتها ونهتم ..» (١١٠) .

بمثل هذه الصرخة يعبر الابراهيمي عن اللوعة والاسى للنكبة التي شردت الشعب العربي الفلسطيني ، ويطالب العرب بالعمل ،لا بان ينحروا الذبائح :

« أيها العرب : لاعيد ، حتى تنفذوا من صهيون الوعيد ،وتنجزوا لفلسطين المواعيد ، ولا نحر ،حتى تقذفوا بصهيون في البحر »(١١١).

ويصور وقع الكارثة عليه حتى الجمت نفسه عن الكلام وقلمه عن الكتابة : « ان بين جنبي ألما ينزى ،وان في جوانحي نارا تتلظى ، وان بين انامليّ قلما سمته ان يجري فجمح وان يسمح فما سمح وان في ذهني معاني انحى عليها الهم فتهافتت ، وان على لساني كلمات حبسها الغم فتخافتت ..» (١١٢) .

وفي هذا تجسيد لما حل به وبالعرب اجمعين فقد رسم صورةللهلع الذي استبد به بل بنفوس الجزائريين في تلك المحنة ، وزاد من حدة هذا الاحساس ان الجزائري كان يمنع حتى من اظهار مشاعره وتعاطفه نحو اشقائه ، لانه تحت سيطرة استعمار اشد قسوة من انواع الاستعمار الاخرى ، فلا يترك فرصة للناس لمجرد التنفيس عنحرمانهم فهم يختنقون ويموتون غيظا وكمدا وهذا ما عبر عنه الكاتب في هذه القطعة التي اختار كلماتها كما اختار لها السجع الذي يناسبها .

ويستغل اسلوب السجع في قطعة اخرى في سجع اخر منسلسلة كتبها في تلك الفترة ايضا (١١٣) ، واذا كانت افكارها قد سبق ان عبر عنها في مقالاته ، فانه من حيث الاسلوب قد اعطاها شكلا جديدا اكثر تأثيرا لانه احيا به سجع القدماء وطريقتهم في التصوير والتهويل والمبالغة واظهار قدرتهم على البيان واللغة ، يقول : « ثار للغرب في فلسطين ، لم تنبت عليه شجرة من يقطين ، وشياطين تنزو للاغراء اثر شياطين ، ويوم في اعنافكم بيوم حطين ، تنسيه غريزة الماء والطين ، فتذكره بعزة الجنس والدين ،أنسيتم يوم تنادوا مصبحين ، وتعادوا مسلحين ، وتداعوا مصطلحين ، وتعاووا من كل حدب وتهاووا من كل صوب ذؤبان ، تقدمها رهبان وغربان ، تظللها صلبان ، بنفوس من الحقد ثائرة ،وقلوب بالبغضاء فائرة ، تنازعكم ارث الاسلام ،ومعراج نبي السلام ؟ أنسيتم ما فعله صلاحالدين بالمعتدين » (١١٤) .

ويستمر على هذا الوتيرة في تقريع العرب ولومهم معللا سبب تكالب الغرب واتحاده ضدهم ، وكذلك سبب انكسار العرب وهزيمتهم وانتصار اليهود وتحقيقهم لهدفهم ، فهؤلاء اعتمدوا على اليقظة وحسن الاستعداد واستخدام العلم والاتحاد والتكاتف وكذا القيادة الموحدة اما العرب فقد اعتمدوا على التفيض : « جاؤوكم على قلب رجل واحد، وجئتوهم بقلوب متنافرة ، قادهم الى الظفر قائد واحد ورأي جميع ، وقادكم الى العار قواد متشاكسون وراي شتيت ، ما اضاع السيادة الا توزيع القيادة ، أتجمعوا وافترقتم ، فسلموا واحترقتم ..» (١١٥) .

بهذه الجمل القصيرةالموجزة حلل الكاتب اسباب الانتصار والهزيمة بل لخص بها واقع العرب عام ١٩٤٨ ، ويذكرنا حديثه هذا بالعبارة التي قالها المفكر العربي المعروف « ساطع الحصري » حين سئل في ذلك الحين : كيف هزم العرب وكانوا سبعة جيوش ؟

فاجاب : لقد هزموا لانهم كانوا سبعة جيوش » .

وكلا الكاتبين كان هدفهما التاثير وايقاظ النفوس والاذهان على الواقع المرير ، ويلخص «الابراهيمي» بعد ذلك في مقاله موقف العرب بعد تلك المحنة بقوله :« ايها العرب : بعضكم ابرار ، وجلكم اشرار، وكلكم اغرار ..» (١١٦) .

فالكاتب حانق ساخط على العرب فهو يصدر فيحكمه هذا الذي قد يبدو مبالغا فيه ، عن ازمة روحية وشعور بالذل مما لحقه ولحق العرب جميعا من عار وهزيمة ، ولكن دون شك كان صادقا في التعبير عن هذا الشعور ، ولم اقرأ نثرا جميلا يصور الكارثة لغير « الابراهيمي » وان قرأنا شعرا جيدا معبرا عن الجرح العميق والالم المض مما لحق فلسطين على يد الاستعمار والصهيونية من اغتيال لها وللحق والعدل ، فهي مثل فريد في التاريخ يقوم شاهدا على انالقوة يمكن ان تنتصر أذا لم تجد ارادة اقوىمنها ، بل ان هذه القضية تمثل خرقا لناموس الكون ، لذلك فان بعض الكتاب الجزائريين اندهشوا لما حدث ، ومن ثمة اصيبوا بصدمة عنيفة زلزلت نفوسهم، فكتبوا نثرا يرقى الى درجة الشعر في بعض اساليبه من حيث حدة الانفعال وقوة التعبير ، مع ان هناكتابا اخرين ـ وفي هذه الفترة بالذات لم تطغ عواطفهم على اذهانهم ، فاستخدموا النثر لبيانظروف القضية والملابسات التي احاطت بها وبرهنوا على ارائهم بالمنطقوالعقل ويمكن ان نشير الى مقالات كثيرة فيهذا المجال بأقلام كتاب ارتبطوا بالحركة السياسية الوطنية وخاصة كتاب جريدة « المغرب العربي » التي تساند حركة انتصار الحريات الديموقراطية ، ففيها مقالات اضافية تهتم بالاحداث لا بالاسلوب ، وتعني بالدوافع والاسباب والظروف والصراعاتالسياسية والاقتصادية ،بصرف النظر عن الصياغة او جمال التعبير ، الامر الذي يختلف عن مقالات الاصلاحيين في هذا المجال باستثناء احمد توفيق المدني الذي كان يميل الى اسلوب التحليل اكثر من اسلوب الانشاء ووصف الاحداث وتصويرها (١١٧) .

اما كتاب جريدة «المغرب العربي » كما سبق القول فقد تابعوا القضية بعد الحرب الثانية وركزوا على مختلف الجوانب لقضية فلسطين عربيا وعالميا ، ومن العناوين ندرك اتجاه هؤلاء الكتاب مثل : « دولة المصالح تبني هياكلها على جماجم العرب بفلسطين ..» (١١٨).

وقد كانت هذه المقالات تتابع ما يجري على الساحة الجزائرية والاجنبية ، وتتقصى اخبار اليهود في الجزائر وتكشف مواقفهم وصحفهم السرية التي« تحرض الفرنسيين على العرب » (١١٩) . كما كانت تتابع اعمال اليهود في الخارج مثل شرائهم للاسلحة ، وبالطبع فان الكتاب في هذه الجريدة كانوا يعنون بالعلاقات بين العرب واليهود وخاصة ما فعله الجزائريون تجاههم ومعاملتهم لهم (١٢٠) .

ونلحظ في هذه الجريدة عناية بنقل الاحداث خاصة عندما حاول كثير من الشباب من الجزائر والمغرب ان يلتحقوا بفلسطين فاقفت عليهم القبض انجلترا وفرنسا :

« وجميع هؤلاء الشبان الجزائريين والمراكشيين كانوا في طريقهم الى مصر حيث ينوي اكثرهم الالتحاق بجموع المقاتلين العرب الذين يستعدون لخوض غمار الجهاد لانقاذ فلسطين ، وينوي بعضهم ان يلتحق بمعاهد القاهرة يطلبون العلم فيها ..» (١٢١).

وكانت بعض المقالات توقع باسم مستعار خوفا من السلطة الفرنسية

---

(١١٠) المصدر السابق ص : ٥١٨ .
(١١١) المصدر السابق ص : ٥١٨ .
(١١٢) المصدر السابق ص : ٥١٨ .
(١١٣) هذه السلسلة اطلق عليها الابراهيمي « سجع الكهان »وكان يوقعها بامضاء « كاهن الحي » أنظر المصدر السابق من ص٥٨٧ ـ ٦٠٤
(١١٤) المصدر السابق ص : ٦٠١ ـ ٦٠٢ .
(١١٥) المصدر السابق ص : ٦٠٢ .
(١١٦) المصدر السابق ص : ٦٠٢ .
(١١٧) كان يكتب فيالبصائر تحتعنوانثابت هو « منبرالسياسة ».
(١١٨) « المغرب العربي » عدد ٤٣ سنة ١٩٤٩ .
(١١٩) انظر ايضا اعداد : ٤٤ سنة ١٩٤٩ ، ٢٤ ، ٢٧ سنة١٩٤٨.
(١٢٠) المغرب العربي : عدد ١٥ سنة ١٩٤٧ .
(١٢١) المغرب العربي : ٢٦ ديسمبر ١٩٤٧ (كان صاحب المقالات حول فلسطين يوقع بامضاء :« سياسي مستقل » ولعله الزاهري الذي كان رئيس تحرير الجريدة في تلك المرحلة .

لان الجريدة سياسية . ومع هذا فهناك مقالات اخرى تبدو ادبية الى حد ما وتعبر عن شعور صاحبها واسلوبه الخاص وعاطفته القوية وعنايته بالصياغة والصور المعبرة .

ومهما يكن من امر فان كتاب المقال الادبي والاصلاحي والسياسي، قد برهنوا على وعي بقضية فلسطين سواء بعد حرب ١٩٤٨ او قبلها وسواء فيما يتعلق بالصراعات السياسية او غيرها او فيما يخص مسؤولية العرب نحوها ونحو عروبة ابنائها ، ويمكن التاريخ للقضية منذ وقت مبكر وحتى بعد النكبة من خلال نثر الكتاب ومقالاتهم .

وحين قامت ثورة نوفمبر ١٩٥٤ شغل الجزائريون بها وبالواقع الوطني ولكنهم لم ينسوا فلسطين في خواطرهم ومشاعرهم ،بل كانوا يفكرون في اليوم الذي يتاح لهم فيه بعد التحرير ان يسهموا فيها وان يعوضوا ما حرمهم الاستعمار من القيام به ، كذلك فان معظم الصحف بل كلها قد توقفت بعد الثورة بقليل ولم يبق سوى جريدة « المجاهد » الناطقة بلسان جيش التحرير الوطني ، ولكن حرب التحرير بالجزائر كان ينظر اليها باعتبارها طريقا لتحرير فلسطين ودعما للنضال العربي عامة ، ولذلك حين استقلت الجزائر عادت فلسطين لتحتل مكانها في كتابات الجزائريين شعرا ونثرا ، لا بأسلوب العاطفة وحدها ، بل بأسلوب فيه عمق ووعي بما حدث وبتاريخ القضية وتطوراتها ، وادراك لما يجب ان يسلكه العرب من سبل لاسترداد الارض السليبة وعودتها لاصحابها الشرعيين وهكذا عاد الكتاب لمتابعة ما انقطع أثناء الثورة فيما يتعلق بقضية فلسطين وبعد ان تأسست صحف ومجلات وطنية ، فحين ظهرت جريدة « الشعب » عقب الاستقلال بدأت تنشر الدراسات المفصلة عن قضية فلسطين والمقالات التي تتناولها من الناحية التاريخية والسياسية والقومية (١٢٢) بل كانت تنشر مقالات لكتاب عرب من المشرق عالجوا القضية من زوايا مختلفة (١٢٣) .

كذلك فان « المجاهد » الاسبوعية قد عنيت عناية خاصة بدور الصهيونية في المؤامرة ، وبالحديث المفصل عن فلسطين منذ القديم وعرض الصراع بين العرب واليهود والحديث عن المقاومة الفلسطينية ، كما اهتم كتاب المقالات بالشخصيات التي لعبت دورا بارزا في أحداث فلسطين المعاصرة عربا كانوا أو أجانب (١٢٤) .

وحين وقعت نكسة ١٩٦٧ او ما اصطلح على تسميته بالنكسة اهتزت لها النفوس واحدثت شرخا كبيرا في وجدان الكتاب والشعب معا ، ومن ثمة رأينا تيارا متواصلا من المقالات والقصائد والخواطر والدراسات المتنوعة التي تعالج دور الأدب في المعركة وتهتم بكل ما له صلة بالموضوع من قريب أو بعيد .

وعاد الكتاب الى الحديث عن تقسيم فلسطين وعن وعد « بلفور » ثم تحليل عوامل الهزيمة الى غير ذلك من الأمور التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالكارثة (١٢٥) وبالرجوع الى الصحف والمجلات ندرك كيف أن الكتاب عاشوا القضية الفلسطينية والقضية العربية في أعماقهم وضمائرهم وبينما ركز الكتاب قبل الاستقلال على انجلترا واحتضانها لليهود وتأييدها لهم ، اتجه كتاب ما بعد الاستقلال الى التركيز على دور أمريكا في العدوان على العرب ومساندتها للصهيونية بعد أن ادركوا حقيقة الاستعمار الامبريالي الامريكي ونواياه تجاه العرب عامة (١٢٦) .

وقد برزت اسماء كثيرة بعد الاستقلال كرست كثيرا من كتابتها لقضية فلسطين مثل محمد الميلي « ومحمد العربي ولد خليفة » م. دين « محمد بوعروج » ومحمد أمصايف « وعمر الرناوي » وغلام الله ومحمد فضيل ومحمد الصغير الأخضري ومحمد أنهواري وعبد المجيد حروز وغيرهم من الكتاب الذين عالجوا القضية من شتى جوانبها .

ولعل من المجلات التي اهتمت اهتماما خاصا بقضية فلسطين من الناحية العسكرية والحربية مجلة « الجيش » التي كانت تنشر دراسات عميقة حول فلسطين وقضية الشرق الأوسط وتعلق على الاحداث بعمق وفهم كبير للعصر وصراع العرب مع القوى الاستعمارية ، كما نشرت فيها سلسلة مقالات حول الموضوع بامضاء م . دين ، نشر بعضها « بالمجاهد » أيضا وهي مقالات حاده قاسية موجزة تعبر عن موقف الكاتب من قضية فلسطين والشرق الأوسط بوجه عام وتعرض لموقف الجزائر من هذه القضية ، وقد اختار لها أسلوب الصراحة الذي لا يجامل أو يرائي بل يشير الى الداء والدواء معا (١٢٧) .

وهناك سلسلة أخرى كتبها « محمد أمصايف » حلل فيها القضية وموقف الجزائر منها ورؤيتها للمستقبل ، وفيها اشادة بطلائع الكفاح المسلح الفلسطيني وتركيز على المقاتلين في الجبهة .

ولا شك أن أساليب الكتاب قد تنوعت واختلفت من حيث الصياغة ومن حيث عنف الانفعال أو هدوئه أو من حيث الايجاز أو التركيز أو التطويل والاطناب ، ويمكن أن نضرب مثلا للمقالات الموجزة التي تتفجر عاطفة وحماسا وأسى أيضا بمقال الاسبوع الاسود (١٢٨) بقلم م.دين ، ففي بدايته نشعر بعمق المأساة في نفسه واحساسه بالمرارة والثـورة :

« بكل الآمال التي تحطمت في نفسي ،بكل المرارة التي تجرعتها مع احتضار الاسبوع الاسود من جوان ،بكل العواصف التي تعربد في اعماقي،مواطنا من هذا البلد الشجاع المؤمن الصامد ،ممزق النفس بين ذهول الصدمة وانفعالات التصميم على رفض الهزيمة » (١٢٩) .

ثم يدخل في التساؤلات عما حدث وكيف ؟ ولماذا ؟ ويحاول الاجابة على هذين السؤالين ، وبهذه الاجابة تتضح الحقيقة ويظهر تواطؤ الاستعمار المستمر ضد البلاد العربية ، كما يظهر أيضا ضعف العرب واعتمادهم على الكلام بدل الفعل ، ويعرض نوع من التفصيل للماضي والحاضر في أسلوب مركز ، بالرغم من أن المقال يبدو طويلا بالقياس الى مقالاته الأخرى في الموضوع .

أما النموذج الثاني من المقالات الطويلة فيتمثل فيما كتبه غيره مثل محمد امصايف في سلسلته التي كتبها حول فلسطين والنكسة وعرض فيها لآثار الهزيمة نفسيا وسياسيا وعسكريا كما تتبع النضال الفلسطيني وعلق على معركة الكرامة وما ترمز اليه ، ويربط بين كفاح فلسطين والجزائر وموقف الجزائريين من القضية ورأيهم في حلها (١٣٠) .

واسلوب الكاتب يميل الى الوضوح والبساطة والى هدوء التعبير ولكن حين يكون الحديث عن المواطنين الفلسطينيين وما يتعرضون له من قمع وارهاب على أيدي الصهاينة يميل الى الانفعال والحماسة :

« فكم من أمرأة ديست كرامتها ، وفقدت الكفيل والأمل في حياة عادية ،وكم من شاب شاخ قبل الاوان فأمسى ضحية المرض والعـري والبطالة ،وكم من صبي لم يكد يرى الوجود حتى حكم عليه بالسقم والمرض والجهل والضياع ... » (١٣١) .

---

(١٢٢) « الشعب » : ٢٢ ، ٢٩ ديسمبر ١٩٦٢

(١٢٣) « الشعب » : ٢٩ ديسمبر ١٩٦٢

(١٢٤) المجاهد الاسبوعي « أعداد ٢ جانفي ٦٦ : ١٣ فيفرى ، ١٠ سبتمبر ١٩٦٤ و١٥ ، ٢٢ أوت ، ٥ ، ١٩ سبتمبر ١٩٦٥ .

(١٢٥) الشعب « ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٤ ، يوليو ١٩٧٦ .

(١٢٦) أنظر مجلة القبس ماي نوفمبر ١٩٦٩ .

(١٢٧) طبعت مع مقالات أخرى في كتاب انطباعات م. دين مطبعة البعث، قسنطينة الجزائر ١٩٧١ (أنظر الجزء الثاني ص : ٦١٦ : ٨٥٤).

(١٢٨) انطباعات ص : ٦٣٧

(١٢٩) المصدر السابق ص : ٦٣٧ .

(١٣٠) أنظر مثلا الشعب ١٩ يونيو و ٢٢ ديسمبر و٢٧ مارس و ٢٢ أكتوبر ١٩٧٠ .

(١٣١) الشعب : ٢٢ ديسمبر ١٩٦٩ .

ومن غير شك فان الحديث عن المهاجرين الفلسطينيين يتطلب أسلوبا كهذا ، بل ان الكاتب ينساق وراء عاطفته القومية فيظهر ألمه وحزنه لما يجري في فلسطين ، وهذه سمة في مقالات الجزائريين التي عرضت لما حل بعرب فلسطين من عذاب وتقتيل ، في حين أن المقالات الأخرى التي تناقش القضية وظروفها لا تظهر فيها بصورة قوية عواطف الكاتب ومشاعره .

والواقع أن من الصعب كما أشرت أن أعرض لكل ما كتبه الجزائريون من نثر حول هذه القضية ، بل يصعب حتى مجرد الاشارة الى مقالاتهم، فالمجال لا يسمح بذلك الى جانب أن عملا كهذا يحتاج الى دراسة مفصلة لأساليب الكتاب ورؤاهم الخصبة تجاه القضية وتنوع ثقافاتهم وتجاربهم الفكرية والسياسية ، وانما أردت فقط أن أرسم في هذا البحث خطوطا عريضة لمسار النثر الجزائري في هذا الموضوع .

على أنه يمكننا أن نسجل في الختام النتائج التالية :

اولا : أن كتاب ما قبل الاستقلال غلبت عليهم النظرة الدينية للقضية بينما بعد الاستقلال غلبت عليهم النظرة القومية لظروف كثيرة ، بعضها يتصل بثقافة الكتاب واتجاهاتهم الفكرية ، وبعضها يرتبط بالمراحل التي مرت بها الجزائر وتأثر الكتاب بهذه المرحلة أو تلك وبعضها يعود الى تطور الأحداث نفسها وتطور الافكار والمفاهيم .

فالفكر الديني سيطر على الكتاب في المرحلة الاولى نتيجة أنهم كانوا اصلاحيين ينتمون الى الفكر الديني الاصلاحي في حين أن كتاب المرحلة الثانية تأثروا بالفكر القومي الوحدوي الى جانب تعدد منابع ثقافتهم .

ثانيا : أننا ركزنا الاهتمام على المقال الادبي أكثر مما ركزنا على أنواع النثر الأخرى لان انتاج الجزائريين حول فلسطين في الاشكال الادبية النثرية الاخرى قليل الى حد ما ، ولانه يدخل في التاريخ للأدب بوجه عام فيما يتعلق بالقضية مما يمكن أن يكون مجال دراسة أخرى .

ثالثا : هناك ملاحظة هامة هي أن خطا واضحا يربط بين الكتاب سواء في بداية ظهور القضية على المسرح العالمي او في تطورها عبر المراحل التي مرت بها حتى النكسة وظهور الكفاح المسلح الفلسطيني الذي جسد المقاومة بأجلى صورها وأعطى الأمل في العودة ، هذا الخط هو ان فلسطين لا يحررها الا الكفاح المسلح والتضحيات ووحدة الجهود والأهداف والمصير أي أن شرط العودة هو وحدة العرب وتوحيد مواقفهم وأساليبهم . والكتاب الجزائريون يصدرون في رؤيتهم هذه عن تجربة طويلة مع الاستعمار ومع اليهود أنفسهم ، ويصدرون عن مبادىء ثورة نوفمبر التي حررت الجزائر من سيطرة الاستعمار الأجنبي وهذا هو طريق فلسطين .

رابعا : أما فيما يتعلق بأساليب الكتاب فانها كما أشرنا ـ تتراوح بين الأسلوب الادبي الذي يعبر عن مزاج الكاتب وقدرته وثقافته ورؤيته الخاصة وعنايته بالبيان والجمال والتأثير ، وبين الاسلوب الصحافي العادي .

صحيح أن المقال الأدبي أيضا قد لا تتحقق فيه الوحدة المعنوية التي تربط بين أجزائه وذلك نظرا لان القضية التي يعالجها قضية حية في نفوس الناس وضمائرهم مما يجعل الكاتب ينتقل من موقف الى آخر أو يكرر أفكار أترددها في مقالات سابقة ولكننا مع هذا نجد مقالات أخرى تراعي سمات المقال وتعنى بالتركيز والتدرج في معالجة الموضوع .

وقد لا نستجيب اليوم لبعض الأساليب النثرية في هذه المقالات ، خاصة تلك التي كتبت سجعا أو روعي فيها قدر من السجع كما روعي فيها الاحتفال بالبلاغة العربية التقليدية أو العناية بغرائب اللغة وما اليها ، قلت قد لا نستجيب لها اليوم ولكنها في تلك الفترة التي كان التركيز فيها على التراث واحيائه وعلى اللغة العربية وبقائها لتعبر عن خوالج الكتاب لانها اعتبرت غريبة في وطنها ، وكانت هذه الاساليب محل اهتمام المتلقين واعتبارها نموذجا راقيا للبيان العربي .

ومهما يكن من أمر فان كتاب النثر فيما يتعلق بقضية فلسطين قد عبروا عن تعاطفهم الواضح مع فلسطين ومع الأمة العربية وجسدوا ارتباط الجزائر بالعالم العربي ، واعتبروا القضية قضيتهم وأنهم طرف فيها ، وأن الاستعمار الفرنسي لم يستطع أن يضعف عاطفة العروبة في نفوس الجزائريين بل أنه غذاها بمواقفه ضد الشعب الجزائري الذي يعتبر فلسطين جرحه الذي لا يندمل الا بعودتها لابنائها وللأمة العربية .

الجزائر

خليل مطران

مختارات من شعره

قدم لها الشاعر

احمد عبدالمعطي حجازي

يصدر هذا الشهر